بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 05 ديسمبر 2019

ذهنية التعذيب
دراسة في فينومينولوجيا الألم

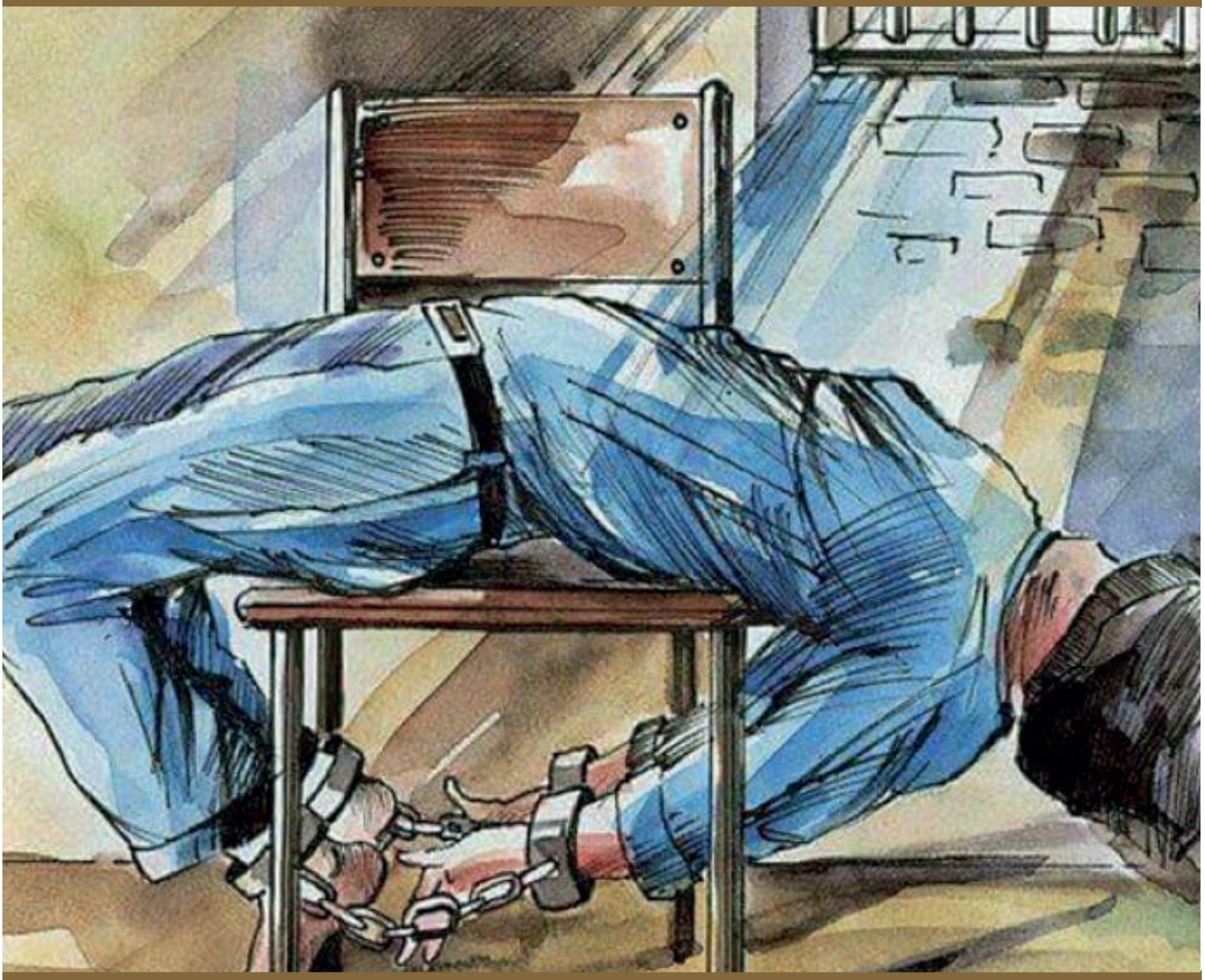

ماهر عبد المحسن
باحث مصري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019
All rights reserved © 2019

ذهنية التعذيب:
دراسة في فينومينولوجيا الألم[1]

1- نشر هذا البحث في كتاب "تأويليات العنف"، إشراف وتقديم فتحي إنقزو، مؤمنون بلا حدود، 2019

العنف ظاهرة إنسانية معقدة، تتضافر في تكوينها عناصر متباينة ومتعددة: سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية. فهناك العنف الفردي، والعنف الجماعي، والعنف المؤسسي، كما أن هناك العنف المادي الذي يُمارس على الجسد، والعنف الرمزي الذي يُمارس على العقل والروح.

والعنف هو البنية المحايثة للكثير من مظاهر التطرف، وعلى رأسها الإرهاب. وعلى الرغم من أن العنف سلوك متبادل بين الدولة وبين الأفراد والجماعات، حتى صار في بعض الأحيان اللغة الوحيدة للتفاهم وحسم الخلافات بينهما، إلا أن الإعلام -الذي هو في الغالب إعلام السلطة- يغض الطرف دائماً عن عنف الدولة، وفي الوقت ذاته يلقى ضوءاً ساطعاً على عنف الأفراد أو الجماعات الخاضعين لسلطة الدولة.

وإزاء هذه المعادلة المختلة، سيمضي البحث في الاتجاه المعاكس، بحيث يجعل من عنف الدولة موضوعاً للدراسة في محاولة للإجابة عن السؤال: إلى أي مدى يمكن لعنف الدولة أن يسهم في تفاقم العنف الفردي والجماعي؟ وما هي المبررات التي تستند إليها السلطة حتى يمكنها أن تضفي المشروعية على عنفها؟

من أجل الإجابة عن هذه التساؤلات، سيتخذ البحث من «التعذيب» نموذجاً للعنف الممنهج الذي تمارسه السلطة على الأفراد المعارضين سياسياً، والمعتقلين في سجون الدولة للوقوف على طبيعة الذهنية التي تمارس هذا العنف.

وبالرجوع إلى الدراسات الغربية المعاصرة، التي أنجزت في هذا السياق، تبين لنا أنها تناولت «التعذيب» فلسفياً كمشكلة أخلاقية ضمن المباحث الجديدة في الفلسفة التطبيقية. وكان السؤال الأساسي في هذه الدراسات هو: إلى أي مدى يجوز للسلطة أن تستخدم «التعذيب» كوسيلة لانتزاع المعلومات من المجرمين؟ ومن بين الآراء العديدة الرافضة لمبدأ التعذيب بإطلاق، برز رأي يجيز التعذيب في حالة واحدة عُرفت باسم «القنبلة الموقوتة»، وهي الحالة التي يكون فيها تعذيب بعض الأفراد وسيلة لإنقاذ عدد أكبر من الناس.

وبالرجوع إلى الدراسات العربية، تبين لنا أنها، في الغالب، قراءات وشروح لأفكار فوكو حول التعذيب، أوردها في كتابه المهم (**المراقبة والمعاقبة**). وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات، واعترافنا بريادتها، سنحاول أن نسلك مسلكاً آخر نعتمد فيه على المنهج الفينومينولوجي، وذلك من خلال دراسة التجارب الذاتية للمعتقلين سياسياً، التي دونوها في مذكراتهم داخل السجون أو خارجها، بهدف الوقوف على الصورة الذهنية التي كونوها عن الجلادين وأفكارهم وأساليبهم في التعذيب، وكذا خبرة الألم التي عانوها، والتي يمكن أن تكشف لنا عن ماهية التعذيب بوصفه عالماً كئيباً ومعيشاً.

وإيماناً منا بأن العنف ظاهرة إنسانية لا ترتبط بدين أو جنس أو لون، سنعتمد على مصادر متنوعة من المذكرات الشخصية والأعمال الأدبية التي تجسد التعذيب في سجون تنتمي إلى بلدان ومجتمعات وسلطات مختلفة. وعلى ذلك، سندرس ثلاثية الكاتب الصحفي مصطفى أمين، التي تبدأ بـ (**سنة أولى في السجن**)، ورواية الأديب يوسف إدريس (**العسكري الأسود**)، نماذجَ للتعبير عن ذهنية التعذيب لدى الجلاد وخبرة الألم لدى الضحية في السجون المصرية. وسندرس رواية الأديب أيمن العتوم (**يا صاحبيّ السجن**)، ورواية الأديب عبد الرحمن منيف (**شرق المتوسط**) للتعبير عن التعذيب في السجون الأردنية، ورواية المفكر والأديب يوسف زيدان (**جوانتانامو**) للتعبير عن التعذيب في السجون الأمريكية، ومذكرات المناضل مروان البرغوثي (**ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي**)، للتعبير عن التعذيب في السجون الإسرائيلية، ورواية (**منزل الأرواح الميتة**) للأديب الروسي دستويفسكي للتعبير عن التعذيب في السجون الروسية.

وأخيراً، يطمح البحث إلى تأسيس نوع من الكتابة الفلسفية يتجاوز ذهنيتي التكفير والتحريم، اللتين بالغت الثقافة العربية في نقدهما وتعريتهما، والعمل على اكتشاف ذهنيات أخرى لا تقل خطورة، تتحكم في عقل وحرية وكرامة ومصير الإنسان عموماً والمواطن العربي على وجه الخصوص، من قبيل ذهنية التعذيب.

وبناءً على ذلك سيتم تقسيم البحث إلى مبحثين رئيسين على النحو الآتي: أولاً: إشكالية التعذيب؛ ثانياً: خبرة الألم.

أولاً: إشكالية التعذيب:

لا يوصف التعذيب بالإشكالية في الأدبيات السياسية والفكرية، ويُستخدم بدلاً منه وصف «أخلاقيات»، وخاصة في الدراسات الفلسفية المعنية بقضية التعذيب. غير أننا نميل إلى استخدام لفظ «إشكالية»؛ لأن فعل التعذيب الذي يمارسه الأفراد والمؤسسات ينطوي على الكثير من التعقيدات النظرية والعملية المثيرة للجدل. وحتى يمكننا الإلمام بأبعاد الإشكالية، فإن الأمر سيتطلب منا التعرض لبعض المسائل ذات الأهمية الخاصة في دراسة الموضوع.

1- تعريف التعذيب:

وفقاً لـ (**قاموس كامبريدج**) «التعذيب» (Torture) هو «فعلٌ يسبب ألماً بدنياً وعقلياً كبيراً من أجل إرغام شخص مّا على فعل شيء مّا أو تقديم معلومات أو أن يكون قاسياً مع الأشخاص أو الحيوانات»[1].

1- Cambridge Dictionary: dictionary.cambridg.org (24/9/2017).

ويلاحظ من هذا التعريف أن الأثر الذي يتركه التعذيب على الشخص المعذب يشمل الناحيتين البدنية والعقلية، وأن هذا السلوك العنيف والقاسي لا يكون لذاته وإنما لغاية أخرى تتجاوزه من قبيل فعل شيء أو تقديم معلومات من قبل الشخص الواقع عليه فعل التعذيب، وهو في الغالب شخص سجين أو محتجز من قبل السلطات. والمفارقة هنا أن الإرغام قد يصل إلى حد تحويل الضحية إلى جلاد عندما يكون التعذيب بهدف جعل المحتجز قاسياً مع الأشخاص أو الحيوانات.

وفي (**قاموس أكسفورد**) يُعرف «التعذيب» (Torture) بأنه «إجراء أو ممارسة لإلحاق ألم شديد بشخص ما كعقوبة أو لإجبارهم على فعل شيء أو قوله»[2].

ولا يختلف تعريف أوكسفورد عن تعريف كامبردج سوى في ذكر «العقوبة» كأحد أهداف التعذيب، وهنا يبدو وكأنّ هذا التعريف يضفي شيئاً من المشروعية على فعل التعذيب؛ لأنه في أحد أشكاله يأتي كعقوبة تنزل بالمحتجز على جرم سبق أن اقترفه، فهو هنا يتحمل تبعة أفعاله غير المشروعة التي ارتكبها بإرادته.

وفي (**معجم المعاني**) تأتي كلمة «تعذيب» (اسم) من مصدر عذَّب، وتعذيب مياه البحار: تحليتها، وتعذيب: إيقاع العذاب. وعذَّب (فعل): عذَّب يُعذب، تعذيباً، فهو مُعذِّب، والمفعول مُعذَّب، وعذّبه عن الشيء: منعه، كفه، وعذَّبه: عاقبه ونكّل به[3].

وعلى الرغم من أن التعريف في العربية ينطوي على العقوبة كما في (**قاموس أكسفورد**) وعلى التنكيل كما في (**قاموس كامبريدج**)، إلا أن الإضافة الجوهرية التي تميز التعريف العربي يمكن أن نجدها في معنى «الاستعذاب». فاستعذب فلان في معجم المعاني تعني طلب الماء العذب، واستعذب الطعام أو الشراب: وجده عذباً سائغاً، واستعذب الكلام أو الغناء: وجده حسن الوقع.

والمعنى اللغوي هنا يفسر لنا العلاقة الغريبة التي تحدث بين بعض الضحايا وبين جلاديهم، حيث يستعذبون الألم بعد طول أمد التعذيب، ويحدث شيء من التواطؤ النفسي بين الضحية والجلاد، وكأن السلوك السادي من شأنه أن يخلق شخصاً مازوخياً في بعض الحالات الشاذة.

وإذا انتقلنا إلى المعنى الاصطلاحي للتعذيب فسنجد أن اتفاقية الأمم المتحدة المناهضة للتعذيب المؤرخة في (10 كانون الأول/ديسمبر 1984م)، قد نصت في مادتها الأولى من الجزء الأول على أنه «يُقصد بمصطلح "التعذيب" أيّ فعل يُرتكب عن عمد ضد شخص ما بغرض إحداث ألم شديد، سواء جسدياً أو عقلياً،

2- English Oxford Living Dictionary: https://en.oxforddictionaries.com (Torture), (24/9/2017).

3- معجم المعاني: www.almaany.com تعذيب (2017/9/24)

لأغراض من قبيل الحصول على معلومات أو اعتراف منه أو من شخص ثالث، أو معاقبته على فعل ارتكبه أو يشتبه في ارتكابه أو ترهيبه أو إرغامه عليه أو على شخص ثالث، أو لأي سبب من الأسباب على أساس التمييز من أي نوع عندما يكون هذا الألم أو المعاناة قد ألحق به، وذلك بتحريض من موظف عمومي أو شخص آخر يتصرف بصفته الرسمية أو بموافقته. وهي لا تشتمل الألم والمعاناة الناشئة فقط عن الجزاءات القانونية أو الملازمة لها أو العرضية»[4].

وعلى الرغم من أن هذا التعريف تمّ وضعه لغرض الاتفاقية، بحسب ما هو وارد في مادتها الأولى، أتى شاملاً، بحيث أصبح مرجعاً للكثير من الدراسات المعاصرة التي تناولت قضية التعذيب، وهو تعريف يقترب من المعنى اللغوي الذي عرضنا له منذ قليل، إلا أن الملاحظ أن الاتفاقية تستهدف بشكل صريح ذلك النوع من التعذيب الذي تقوم به السلطات تجاه الأفراد، وأنها تميز بين التعذيب كفعل عمدي يتم لأغراض معينة، وبين الألم الناجم عن الجزاءات القانونية.

ويرى البعض -تعليقاً على هذه المادة من الاتفاقية- أن عبارة «الجزاءات القانونية الملازمة أو العرضية» غامضة وواسعة جداً، ومن الصعب تحديد العقوبات الملازمة للعقوبات القانونية، أو التي تنطوي عليها العقوبات في نظام قانوني معين. وهو الأمر الذي من شأنه أن يفتح المجال لإصدار قوانين محلية تسمح بأعمال التعذيب على اعتبار أنها تدخل ضمن بند العقوبات القانونية[5].

وفي هذا السياق تقدم (**موسوعة ستانفورد**) تحليلاً موسعاً ومتعمقاً لمفهوم التعذيب من شأنه أن يساعد كثيراً في وضع الحدود الفاصلة بين الأفعال التي يمكن أن تندرج تحت وصف «التعذيب»، وتلك التي تخرج عن هذا التوصيف.

وتورد الموسوعة -على سبيل المثال- الأفعال التي تندرج تحت «التعذيب» من قبيل الحرق بمكواة ساخنة، والصدمة الكهربائية للأعضاء التناسلية، وقطع أجزاء من الجسم مثل اللسان، والأحشاء والأعضاء التناسلية، والضرب المبرح، والتعليق من الساقين وربط الذراعين من وراء الظهر، أو وضع إبرة تحت الأظافر، أو الحفر من خلال أسنان غير مخدرة، أو الغمر في الماء لإنتاج الإحساس بالغرق، أو الحرمان من الطعام أو الماء أو النوم لعدة أيام أو أسابيع.

4- United Nations, Convention against Torture: http://www.ohchr.org/EN/ProfessionalInterest/Pages/CAT.aspx (24/9/2017).

5- Ronli Sifris (December 4, 2013). Reproductive Freedom, Torture and International Human Rights: Challenging the Masculinization of Torture, Routledge, p. 145.

وتقدم الموسوعة تعريفاً خاصاً للتعذيب يتسق والتحليلات المتعمقة التي أجرتها على العديد من الدراسات، بما في ذلك تعريف اتفاقية الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب، التي رأت أنها غير كافية لتحديد معنى التعذيب.

والتعريف الذي تقدمه هو: «(أ) الإيذاء المتعمد للمعاناة الجسدية الشديدة لبعض الأشخاص غير الموافقين على الإعفاء، (ب) التقييد المتعمد والكبير لممارسة استقلال الشخص (الذي يتحقق عن طريق (أ))، (ج) بصفة عامة، التي يضطلع بها لغرض كسر إرادة الضحية»[6].

وأهم ما يميز هذا التعريف هو النقطة (ج) الخاصة بكسر إرادة الضحية؛ لأن كسر الإرادة هو السبيل لتحقيق الهدف من التعذيب، الذي حصرته اتفاقية الأمم المتحدة في أربعة: (1) الحصول على اعتراف، (2) الحصول على المعلومات، (3) المعاقبة، (4) الإجبار على التصرف بطرق معينة. كما أن كسر الإرادة -في التحليل الأخير- يكون في بعض الأحيان هو هدف الجلاد في حدّ ذاته لممارسة ساديته.

وبناءً على هذا التعريف يتم التمييز بين التعذيب وبعض الممارسات الأخرى من قبيل الإكراه، والإجراءات الطبية، والعقوبات البدنية، وبعض المحن التي تنطوي على إلحاق ألم شديد.

ويتضح التمييز بين الإكراه والتعذيب في وجود حالات يضطر فيها الناس إلى القيام بما لا يريدون القيام به مثل تسليم محافظهم للسارق الذي يهددهم بإطلاق النار دون أن ينطوي هذا التهديد على إلحاق بمعاناة جسدية. وفي المقابل قد ينطوي التعذيب على إكراه، إلا أنّ الحاصل في الغالب أن التعذيب يأتي كمرحلة لاحقة بعد فشل عملية الإكراه. غير أن النقطة المهمة في هذا السياق هي الربط بين التعذيب والإرهاب، بحيث يمكن القول: «إن التعذيب هو تكتيك إرهابي. ومع ذلك، فإنه يمكن استخدامه ضد مقاتلي العدو من قبل الجيوش التي تقاتل في الحروب التقليدية ونشر الاستراتيجيات العسكرية التقليدية».

وتنبع أهمية هذا الربط من أنه يكشف عن مفارقة صارخة في المباحث التالية من الدراسة عندما نعلم أن الاتجاه نحو التعذيب قد ازداد في السنوات الأخيرة في البلدان التي تحمل لواء الحرية وحقوق الإنسان -وعلى رأسها أمريكا- بحجة «الحرب على الإرهاب».

ويختلف التعذيب أيضاً عن الإجراءات الطبية المؤلمة كما يحدث في حالة متسلق الجبال، الذي يقوم ببتر ذراع صديقه الذي انحشر في شقٍّ جبلي في منطقة معزولة وقاسية. فالإجراء هنا لا ينطوي على رغبة في كسر إرادة الأشخاص، وإنما الهدف هو العمل على إنقاذ حياتهم.

6- Miller, Seuma, "Torture", The Stanfort Encyclopaedia of Philosophy (Summer 2017 Edition, Edward N. Zalta): https://plato.stanford.edu/archives/summer2017/entries/torture (24/9/2017).

كما يختلف التعذيب عن العقوبة البدنية، التي تقع على الأشخاص الذين ارتكبوا بعض الجرائم القانونية، لأنها لا تقع إلا على المذنبين تنفيذاً لعقوبة نص عليها القانون. وعلى العكس من التعذيب، يتكون العقاب البدني عادة من مجموعة محددة من الأفعال المحددة سلفاً، والتي تُدار خلال فترة زمنية محددة؛ عشر سنوات أشغال شاقة مثلاً.

وأخيراً تميز (**موسوعة ستانفورد**) بين التعذيب وبين المحن التي تنطوي على إلحاق ألم بدني شديد: وذلك على نحو ما فعل جوردون ليدي (Gordon Liddy) عندما وضع يده على شمعة تحترق من أجل اختبار إرادته لا من أجل كسرها، وهو فعل يقوم به الشخص طوعياً بعكس التعذيب[7].

2- تجليات التعذيب في التاريخ:

يتم التأريخ للتعذيب عادة بطريقتين: إما عن طريق رصد الآليات التي كانت تستخدم في تعذيب الضحايا عبر العصور، وهي -في الغالب- آليات شديدة القسوة تعمل على بث الرعب في النفوس من ناحية وتشبع رغبة سادية متوحشة لدى الجلاد من ناحية أخرى، من خلال أساليب التقطيع والتمزيق والحرق لجسم الضحية. وفي كل الأحوال، هي تكشف عن وعي مريض ومتخلف كان مميزاً لفترة ظلامية سحيقة من عمر البشرية. وإما أن يأتي التأريخ عن طريق دراسة تطور العلاقة بين القانون من ناحية، والممارسات التعذيبية من ناحية أخرى. والغريب في الموضوع، أن الاطلاع على تاريخ التعذيب لا يكشف لنا عن تطور كبير في الوعي الإنساني على الرغم من ثورة التنوير في أوربا وانتشار المنظمات الحقوقية التي تطالب بالمحافظة على حرية وكرامة الإنسان في العصر الحديث. فما زالت المؤسسات العقابية تمارس التعذيب غالباً لأغراض سياسية بأبشع صوره، بل إنها نجحت في إحياء صور قديمة من التعذيب مثل الجلد والخنق بالغازات وإحراق الجلد، بالإضافة إلى ابتكار طرق جديدة مثل الحرمان من النوم والصعق الكهربائي وإيهام الضحية بالغرق.

ما يهمنا إذاً -في كل الأحوال- هو إثبات أن التعذيب ذهنية لصيقة بالإنسان في كل العصور قديمها وحديثها، وأن الميل لإيلام الآخر هو غريزة متأصلة فيه مهما بلغ من علم ومن فن ومن أدب ومن مدنية، وأن الأفراد مهما بلغت درجة عنفهم تظل السلطات الحاكمة هي مصدر العنف الأكبر والأقسى بما تملكه من إمكانات ومن أجهزة ومن سياسات عامة لا تقيم وزناً للأفراد ولا للجماعات.

7- المرجع المذكور.

فبالعودة إلى القانون الروماني في أوربا سنجد أن التعذيب كان يحتل ثلاث درجات من المعاناة[8]. وكان التعذيب من الدرجة الأولى يأخذ شكل الجلد والضرب دون تشويه الجسم، والتعذيب من الدرجة الثانية يتكون بالكامل من أجهزة سحق الإبهام وأصابع القدم والركبتين والقدمين وحتى الأسنان والجماجم. وأخيراً التعذيب من الدرجة الثالثة، ويتبدى في تعريض الجسد لآلام مروعة عن طريق استخدام المسامير والشفرات الحادة والزيت المغلي والحرائق.

ويلاحظ ارتباط أفعال التعذيب بالقانون. فالبداية -دائماً- كانت مشروعة من خلال تنفيذ العقوبات التي تقررها القوانين، ثم تأتي النهاية فيما بعد خروجاً على هذا القانون، بل كل قانون وكل أخلاق وكل إنسانية. ويمكن العثور على مشاهد التعذيب والعقاب البدني على الآثار القديمة في بلاد ما بين النهرين والمصريين القدماء. وقد تم العثور على السجلات الأولى للتطبيق القانوني للتعذيب لإثبات الذنب أو البراءة في القانون السومري في أورنامو (القرن الحادي والعشرون قبل الميلاد) والقانون البابلي لحمورابي (القرن الثامن عشر قبل الميلاد)، التي استُخدِمت في الإجراءات الإثباتية «الحكم الإلهي». وقد تم تأسيس كلا القانونين على الفكر الثيوقراطي القانوني الذي يحتج بالسلطة الإلهية، ويفسر القوانين على أنها إرادة الآلهة التي يجب على الجميع إطاعتها. وفي اليونان القديمة تم تأسيس القانون على الطبيعة، واستخدم التعذيب في إجراءات الإثبات وسيلةً فعالة بجانب القوانين والعادات والشهادات وأداء اليمين. كما كان التعذيب محجوزاً للعبيد الذين عُدَّت كلماتهم غير ذات قيمة أخلاقية، وعُدَّ التعذيب محدداً للحقيقة، ومن ثَمّ يكون الاعتراف الذي يتم الحصول عليه بهذه الطريقة صحيحاً[9].

وفي العصور الوسطى استخدمت المحاكم الأوربية التعذيب بحسب جريمة المتهم ووضعه الاجتماعي. وعُدَّ التعذيب وسيلة مشروعة لانتزاع اعترافات أو الحصول على أسماء المتواطئين أو غيرهم من المعلومات عن الجريمة، على الرغم من أن العديد من الاعترافات كانت باطلة إلى حد كبير بسبب اضطرار الضحية إلى الاعتراف تحت عذاب وضغط كبيرين. وفي كثير من الأحيان كان يتم تعذيب المتهمين الذين حُكِم عليهم بالإعدام بالفعل لإجبارهم على الكشف عن أسماء المتواطئين. وقد بدأ التعذيب في محاكم التفتيش في العصور الوسطى في عام (1252م) وانتهى في عام (1816م)، وكان التعذيب عادة ما يكون سراً، في الأبراج المحصنة تحت الأرض. وعلى النقيض من ذلك، كانت عمليات الإعدام التعسفية علنية في العادة، كما أن النقوش الخشبية للسجناء الإنجليزيين الذين شنقوا وألقوا وأودعوا تظهر حشداً كبيراً من المتفرجين. وخلال هذه الفترة تم تعذيب السحرة، وقد بدأ يزداد تواتره بعد عام (1468م) عندما أعلن البابا أن السحر

8- A. Hirsch (ed.), The Book of Torture and Executions (Toronto: Golden Books, 1944.

9- History of Torture: (2015) tortureum.com/history-of-torture (13/10/2017).

هو استثناء من المجرمين، ومن ثَمَّ إزالة جميع القيود القانونية على تطبيق التعذيب في الحالات التي يصعب الحصول فيها على أدلة. كما استمر التعذيب من قبل البروتستانت خلال عصر النهضة ضد المعلمين الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم زنادقة، وكذلك طال التعذيب المشتبه في إصابتهم بالطاعون على اعتبار أنه جريمة أكثر خطورة[10].

وإذا كان القرنان السادس عشر والسابع عشر قد شهدا العديد من مظاهر التعذيب، والأحكام المأساوية التي تم التوصل إليها على أساس اعترافات انتُزعت بطرق التعذيب المروعة، فإن عصر التنوير في القرن الثامن عشر قد جلب معه تغييرات كبيرة على الأصعدة كافةً في المجتمع بما في ذلك العلوم القانونية، وخاصة مع أفكار التنوير التي أتت من قبل فولتير، وروسو، ومونتسكيو. ويعدّ سيزار بيكاريا، عالم الإجرام الإيطالي، والفقيه والفيلسوف والسياسي، نقطة تحول مهمة في تاريخ التعذيب الجنائي، حيث تُعد مقالته حول الجرائم والعقوبات، المنشورة عام (1764م)، بداية القانون الجنائي الحديث. وفي هذا الصدد يدافع بيكاريا في دعواه عن مبدأ احترام حقوق الإنسان للمتهمين في المحاكمات العامة ويعارض التعذيب وعقوبة الإعدام[11].

وقد ساهمت أفكار بيكاريا في إلغاء التعذيب، فكانت بروسيا أول بلد يلغي التعذيب كأداة قانونية في إجراءات المحاكمة عام (1740م)، تليها النمسا في (1776م)، وفرنسا في (1789م)، وفي بداية القرن التاسع عشر لم تعد التشريعات الأوربية تستخدم التعذيب أداةً قانونيةً في المحاكمات. ولكن الأمر لم يدم طويلاً؛ ففي بداية القرن العشرين، ومع الأفكار الاشتراكية والثورية الوطنية، أصبحت حقوق الدولة أهمّ من حقوق الأفراد، فعاد التعذيب مرة أخرى ليمارس، ولكن ضد «أعداء الثورة» في الاتحاد السوفييتي والصين، وضدّ «أعداء النظام السياسي» في ألمانيا الفاشية وغيرها من دول المحور، ومن هنا ظهر تعذيب المعارضين السياسيين والجواسيس وأسرى الحرب.

وإزاء الممارسات الدموية، التي تجاوزت كل الحدود في معسكرات الاعتقال النازية والستالينية، وما حدث في أوربا والأمريكتين وآسيا أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأت المنظمات الدولية لحقوق الإنسان والمنظمات الإنسانية تتفاعل مع هذا الاستخدام المنهجي غير المقيد لآلية التعذيب. وبهذا المعنى تبدأ موجة حقوقية إنسانية ثانية بعد موجة عصر التنوير، وهي محاولة لاستعادة المبادئ الحقوقية التي تأسست في هذا العصر، وتم إهدارها في القرن العشرين، وكذلك العودة للإعلان الخاص بحقوق الإنسان والمواطن لعام (1789م). وقد أسفرت هذه الجهود عن اعتماد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان للأمم المتحدة عام

10- https://en.m.wikipedia wiki: «Torture» (13/10/2017).

11- History of Torture, op.cit. (14/10/2017).

(1948م)، ثم اتفاقية مناهضة التعذيب التي اعتمدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في (1984م) التي تحظر استخدام التعذيب في أيّ ظرف من الظروف.

كما أنشأت الأمم المتحدة لجنة مناهضة التعذيب في عام (2002م)، وهي هيئة من الخبراء المستقلين في مجال حقوق الإنسان ترصد تنفيذ اتفاقية مناهضة التعذيب من جانب الدول الأطراف فيها[12].

فإلى أي مدى التزمت الدول بهذه الاتفاقيات، وإلى أي مدى تحول الوعي الإنساني من الوحشية إلى المدنية؟

لكي نعرف الإجابة عن هذا التساؤل المهم، سنتعرض إلى نموذجين اثنين خارجين من الحقبة المعاصرة لدى دولتين كبيرتين لهما باع طويل في الدعوى لحقوق الإنسان، وهما إنجلترا وأمريكا.

في مقالة مهمة هي مراجعة ستيفن هاو (Stephen Howe)، أستاذ تاريخ وثقافة الاستعمار في جامعة بريستول، كتاب إيان كوبان بعنوان: (**بريطانيا القاسية: التاريخ السري للتعذيب**)، يكشف لنا عن الممارسات اللاإنسانية التي كانت تدور عبر تاريخ طويل في إنجلترا، على الرغم من الحظر القانوني للتعذيب[13]. ويرجع هذا الحظر إلى قانون عام (1640م): وهو الذي تم اختراقه من قبل السلطات تحت دعوى: «الظروف الاستثنائية». وتعد هذه الدعوى إحدى الأفكار المهمة التي اقترحها المنظّر القانوني الألماني (والنازي المتحمس) كارل شميت (Carl Schmitt)، التي طورها الفيلسوف الإيطالي جيورجيو أغامبن (Giorgio Agamben) مؤخراً، ومفادها أن الأساس الجوهري لسلطة الدولة الحديثة إنما يكمن في القدرة على تحديد ما هو «استثناء»، وبهذا المعنى يكون الاستثناء هو القاعدة. ووفقاً لهذا المبدأ -المتوطن تاريخياً- كان يكفي حرمان الضحايا من النوم لحثهم على مئات الاعترافات الكاذبة والسخيفة التي كان من شأنها أن تؤدي بهم إلى حبل المشنقة.

وتكشف المقالة عن الأكاذيب البريطانية الكبرى الناجمة عن الازدواجية في الرؤية وفي المعايير عندما يقول: «إنه إذا كانت الصور الذاتية البريطانية والقوالب النمطية ذات الطابع الوطني تدور حول أفكار اللياقة والنزاهة، فإن السمة الثابتة بشكل لافت للنظر لصور الآخرين بالنسبة إلى بريطانيا، إنما هي تهمة النفاق المتوطنة».

12- Ibid. (14/10/2017).

13- Stephen Howe, «Crual Britannia: A Secret History of Torture by Ian Cobain», Counterpoint, 2012: www.ind - pendent.co.uk/arts-entertainement/Book (14/10/2017).

ووفقاً للمقالة، كان التعذيب في بريطانيا أمراً متكرراً وروتينياً في الفترة من (1939م) إلى (1945م)، وخاصة في مراكز الاستجواب السرية مثل «قفص لندن» في كنسينغتون (السفارة الروسية الآن) (Kinsington)، ثم انتقلت مشاهد التعذيب إلى مواقع متعددة لإنهاء الاستعمار والتمرد المناهض للاستعمار في جميع أنحاء العالم، وخاصة في كينيا، وقد اعترفت الحكومة البريطانية الحالية بأن المشتبه في أنهم من المتمردين قد تعرضوا للتعذيب.

وفي أيرلندا الشمالية في (1970م) كانت هناك خمس تقنيات سيئة السمعة من العزلة والحرمان الحسي، والإرهاق والإذلال والألم النفسي، دون ترك أي علامة جسدية واضحة. وفي «الحرب على الإرهاب»، وعلى الرغم من أن عملاء الدولة في المملكة المتحدة لا يفترض أن يستخدموا تلك التقنيات التي يعتمدون عليها ويسهلون ويشجعون سجناء الدول الأخرى على تعلمها والقيام بها، كان الوزراء والمسؤولون في حكومتي بلير وبراون يعرفون كل شيء عن هذا، ويعرفون أنه غير قانوني، ويعملون بجهد مخجل لإخفائه وإنكاره.

وفي النهاية، يرى هاو أن ما يحدث في إنجلترا إنما هو نوع من خيانة الأمانة الرسمية والرضا العام في الماضي والحاضر، وأن الشيء الأكثر إثارة للقلق هو أن ما تم اكتشافه عن التاريخ السري للتعذيب حتى الآن لم يمس سوى السطح الخارجي فقط.

وفي مقالة أخرى مهمة لروبرت باليتو (Robert Pallitto)، أستاذ العلوم السياسية في جامعة سيتون هول في نيوجرسي، بعنوان: «التعذيب والذاكرة التاريخية: سياسة جديدة»، يحدثنا عن التاريخ الدموي لأمريكا، بلد الحريات[14] وفي هذا السياق يميز المؤلف بين موقف الأمريكيين قبل (11) أيلول/سبتمبر وبعده. فقبل هذا التاريخ كان يعتقد الأمريكيون أن التعذيب ليس له تاريخ في أمريكا، وإنما كان تاريخه في أوربا في العصور الوسطى في قيادة الديكتاتوريين أو في التمرد اليساري. أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة فإن مثل هذا التعذيب من شأنه أن ينتهك المبادئ الليبرالية والديمقراطية.

فمنذ جورج واشنطن (George Washington) وحتى جورج دبليو بوش (George W. Bush)، رؤساء الولايات المتحدة يندون بالتعذيب. أما بعد هجمات (11) أيلول/سبتمبر، وفي ظل الحزن الجماعي والغضب والضعف في البلاد، فقد ظهرت أصوات تطالب بإعادة النظر في حظر التعذيب. وفي هذا الصدد

14- Robert Pallito, «Torture and Historical Memory», New Politics, Summer 2011, Vol. XIII-3: newpol.org/co - tent/torture-and-historical-memory (14/10/2017).

يقول: «بالتأكيد كان عالم ما بعد 11 سبتمبر مختلفاً، وكان علينا أن نعدّل تفكيرنا وأعمالنا من أجل البقاء في هذا العالم. ولأول مرة ناقش صناع السياسة علناً خيار التعذيب وسيلةً لمنع الهجمات في المستقبل»[15].

غير أنه يطرح المسألة بنحو مختلف، ويرى أن مثل هذا التصور مجافٍ للواقع؛ لأن تاريخ الولايات المتحدة يشهد بوجود التعذيب منذ العصر الاستعماري حتى الآن. وأن القول بغير ذلك مسألة خداع وتبرير من أجل إضفاء المشروعية على التعذيب الذي تمارسه الولايات المتحدة في عصرنا الراهن. ويسوق بعض الأمثلة على الممارسات التعذيبية التي قامت بها السلطات الأمريكية عبر تاريخها، ليدل بها على أصالة النزعة الانتقامية لدى الأمريكيين، السابقة على هجمات (11) سبتمبر. ففي أوائل عام (1900م) تم تعذيب المتمردين الفلبينيين باستخدام «علاج المياه»، حيث احتجزهم الجنود الأمريكيون، وقاموا بدفع المياه إلى بطونهم بنحو مبالغ فيه، ما عرّض حياتهم للخطر. وفي عام (1936م) علق نائب رئيس شرطة الجنوب مشتبهاً فيه بالقتل بالمشنقة حتى اعترف.

وفي الستينيات، قامت وكالة المخابرات المركزية بتطوير ونشر دليل كوبارك، الذي أصدر تعليمات للمحققين حول تقنيات الاستجواب القسري بما في ذلك استخدام الألم والخوف والمخدرات والمحفزات. وفي الثمانينيات قامت شرطة شيكاغو في «المنطقة2» بضرب المشتبه فيهم وحرقهم.

وفي سجن أبو غريب قام العسكريون بتعذيب السجناء وتصويرهم عرايا وهو ما لا يتناسب مع التعريف القانوني للتعذيب المنصوص عليه في اتفاقية مناهضة التعذيب لعام (1984م)، أو أحكام قانون الولايات المتحدة لعام (1994م) الذي يحظر التعذيب.

ويعلق قائلاً: «... لم تكن هناك فترة خالية من التعذيب أو خالية من القسوة من تاريخ الولايات المتحدة». ويحلل خطاب السلطة الأمريكية المبرر للتعذيب، وخاصة في اعتماده على رؤية شميت في «الحالات الاستثنائية»، ويرى أن المغالاة في استخدام هذا المبدأ من شأنها أن تجعل من الاستثناء هو القاعدة، وفي ذلك خطر على النظام السياسي الليبرالي.

3- أخلاقيات التعذيب:

تحول موضوع «التعذيب» إلى مبحث فلسفي في علم الأخلاق المعاصرة، وأصبح هناك مجال واسع للجدل والمناظرة حول الموضوع نتيجة للتطورات التاريخية والسياسية والاجتماعية التي تعرضنا لها في السطور السابقة. فالتعذيب -كما ذكرنا- يمثل إشكالية إنسانية معاصرة، لأنه ينتمي إلى عصور بربرية

15- المرجع المذكور.

مظلمة من ناحية، ويملك حضوراً طاغياً لدى إنسان هذا العصر ابن التنوير ومخترع حقوق الإنسان من ناحية أخرى.

وفي هذا السياق يُعدّ ميشيل فوكو صاحب المبادرة الأولى في توجيه الفلسفة ناحية موضوع التعذيب في كتابه (**المراقبة والمعاقبة**)، الذي تتبَّع فكرة ولادة السجن وتطورها عبر التاريخ في سياق سعي المؤسسات العقابية نحو ممارسة الفعل الانضباطي على الجسد الإنساني بوصفه موضوعاً للعقوبة. وتنبع أهمية كتاب فوكو من ناحيتين: ناحية الشكل، وناحية المضمون. فمن حيث الشكل، تخلى فوكو عن الأدوات الفلسفية المفاهيمية التقليدية، وقدم الفلسفة في صياغة جديدة تجمع بين ما هو فكري وما هو أدبي، بين المفاهيمي والبصري. وفي هذا الصدد يقول مطاع صفدي في مقدمة الترجمة العربية للكتاب: «بدءاً من فاتحة الكتاب يدخلنا فوكو في لوحات متتابعة ترسم تعذيب ذلك التعس المدعو داميان، منذ أن كان محمولاً على عربة العرض، التي تخترق شوارع باريس لتصل به إلى ساحة إعدامه. وهناك يمارس فوكو بصحبة قارئه لذة حريفة في إعادة إحياء فصول التعذيب لحظة فلحظة، بحسب إيقاع التقطيع والتمزيق في لحم السجين وأعضائه. فالتحليل يحاذي الوصف. الأول يوغل في تفاصيل المشهد إلى أدق مفاصله، والثاني يقدم لوحاته بحجمها الطبيعي المباشر. بذلك الأسلوب الذي يعبّر عن نتائج التحليل، ليس بالمعنى العلّي، ولكن بالمعنى البصري... فالتحليل واللوحة يسيران في مزدوجة»[16].

ومن حيث المضمون، يهجر فوكو المباحث الفلسفية التقليدية، محدثاً قطيعة معرفية معها، متجهاً صوب الواقع المؤسسي المباشر، «فالفلسفة تستغني عن كل تقاليدها، وتبرح لغتها ومصطلحها، وتهجر أدواتها. وتنزل المستشفيات والسجون وتوثيق المحاكم والبلديات والقصور، ومهجورات المكتبات العامة والخاصة. والمقصود دائماً ليس بعث التاريخ ولا مشاهده، لكنه جعل التاريخ ذاته يقدم لنا حيله السرية»[17].

ومن أهم النتائج التي توصل اليها فوكو هو تحول العقوبة من المشهدية إلى عمل إداري يدار في المؤسسات العقابية في الخفاء، يقول: «واتجه العقاب بعدها ليصبح الجزء الأكثر خفاءً في العملية الجزائية، ما أدى إلى عدة نتائج: لم يعد ضمن مجال الرؤية والمشاهدة شبه اليومية، بل أصبح داخلاً في مجال الوعي المجرد؛ وأصبحت فعاليته تُعزا إلى حتميته، لا إلى شدته المرئية، وأصبح التأكد من حتمية العقوبة (pénalité)، لا المسرح الكريه، هو الذي يجب أن يردع عن الجريمة»[18].

16- فوكو، ميشيل، المراقبة والمعاقبة: ولادة السجن، ترجمة علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، 1990م، ص33.

17- المرجع نفسه، ص32.

18- المرجع نفسه، ص52.

ويلاحظ أن دراسة فوكو إنما تنصب على التعذيب وسيلةً لتنفيذ القانون؛ أي كشكل من أشكال العقوبة. فهو مازال يتحرك في السياق التاريخي للتعذيب المشروع، الذي يستند إلى القانون. وبهذا الاعتبار، يصل في تحليله إلى إدراك السلطة العقابية لموقفها غير الأخلاقي عندما تحلّ محلّ المجرم وتقوم بممارسة الفعل المستجهن نفسه الذي تعاقب عليه المجرم على نحو ما يحدث فى تنفيذ عقوبة الإعدام على سبيل المثال. وبمزيد من السعي التحليلي الحثيث يصل إلى أن السلطة تحرص دائماً على إبعاد نفسها عن هذا العار اللاأخلاقي بأن تعهد به إلى سلطات إدارية أخرى مثل وزارة الداخلية أو وزارة الحربية، أو وزارة المستعمرات مثلما كان الحال في فرنسا: «وهكذا يوجد في العدالة الحديثة ولدى الذين يوزعونها خجل من المعاقبة، لا يستبعد دوماً الحماسة. هذا الخجل ينمو باستمرار: إذ يزداد حول هذا الجرح عدد علماء النفس والموظفين الصغار المسؤولين عن التقويم الأخلاقي»[19].

وشعور السلطة العقابية بالخجل هو المفارقة التي ستنقلنا إلى الإشكاليات الآنية لممارسة التعذيب من قبل مؤسسات الدولة. فإذا كان فوكو يتحدث عن التعذيب الذي كان يمارس على جسد المحكوم عليه بالعقوبة، فإن دراستنا تنصب على نمط من التعذيب لا ينتمي إلى المنظومة العقابية، لكنه ينتمي بالأحرى إلى النظام السياسي والإيديولوجي للدولة. وهو التعذيب الذي تمارسه السلطة بهدف انتزاع المعلومات من المسجونين سياسياً، أو من أجل درء خطر قادم من خلال الأعمال الإرهابية. فالتعذيب هنا تحول من تدبير عقابي إلى آلية ممنهجة لتحقيق مآرب سياسية (داخلية: خاصة بالمعارضين للنظام، أو خارجية: خاصة بالسياسات الاستعمارية).

فما هو الموقف الأخلاقي من هذه الممارسات على نحو ما تبدت في عصرنا الحاضر؟

للإجابة عن هذا التساؤل دار سجال طويل بين المحللين السياسيين والمنظرين في مجالات الفلسفة وعلم الاجتماع، وأسفر هذا السجال عن نتائج مهمة أضافت إلى التحليل وإلى الإشكالية، وإن كانت لم تنته إلى نتيجة حاسمة ترضي جميع الأطراف. وفي كل الأحوال يمكننا تقسيم الآراء إلى اتجاهين رئيسين: الأول مؤيد للتعذيب، والآخر رافض له. وهناك اتجاه ثالث يقف موقفاً وسطاً بين الاتجاهين، فهو يرفض التعذيب كمبدأ، لكن يجيزه على سبيل الاستثناء. فما هي المبررات التي قدمها كل فريق؟

تدور المناقشات في الغالب حول قضية التعذيب من خلال سيناريو افتراضي يُعرف بـ «القنبلة الموقوتة». والمؤيدون لممارسة التعذيب يستندون إلى هذا السيناريو؛ لأنه يصور إرهابياً معروفاً زرع قنبلة في قلب مدينة مجاورة، وتم القبض عليه واحتجازه، وهناك وقت لمنع وقوع الكارثة وانفجار القنبلة، وهنا

19- المرجع نفسه.

يرى أنصار هذا الاتجاه ضرورة ممارسة التعذيب تجاه هذا الإرهابي؛ لأن الضرر الذي سيقع عليه نتيجة الألم البدني والنفسي سيكون دون شك أقل كثيراً من الأضرار التي ستنجم حتماً عن انفجار القنبلة في المدينة المليئة بالسكان.

وفي المقابل يستند المعارضون لممارسة التعذيب إلى عدم واقعية السيناريو المفترض بالإضافة إلى انعدام اليقين بصدد أهمية المعلومات التي يمكن أن يحصل عليها المعذب من الضحية.

وفي سياق هذا النقاش يحاول البعض تأسيس قبوله للتعذيب على أسانيد أخرى تبدو، من وجهة نظر قائليها، أكثر إقناعاً. فهناك من يرى أن استخدام التعذيب من أجل انتزاع المعلومات أقل ضرراً من الأضرار الجانبية للحروب. فالجندي الذي يلقي بقنبلة أثناء الحرب لا يمكنه أن يتيقن من حجم الخسائر في الأرواح البدنية التي ستكون ضحية لهذا الهجوم من النساء والأطفال: «ففي الحرب الحديثة تكون الأضرار الجانبية من تشويه وقتل للأبرياء من غير المقاتلين أمراً لا مفر منه. وسيبقى لا مفر منه في المستقبل المنظور. إن الأضرار الجانبية ستكون مشكلة حتى لو كانت قنابلنا أكثر ذكاءً بكثير مما هي عليه الآن. كما أنها ستكون مشكلة حتى لو عقدنا العزم على الدخول في الحروب الدفاعية فقط. فليس هناك هروب من حقيقة أننا عندما نسقط القنابل، نسقطها مع العلم أن بعض الأطفال سوف يكون أعمىً أو مشلولاً أو يتيماً»[20].

ويعد رأي شتاينهوف (Uwe Steinhoff) من أكثر الآراء المثيرة للجدل، على الرغم من أنه لا ينتمي إلى المؤيدين للتعذيب بإطلاق، وإنما في حالات استثنائية يصفها بأنها «نادرة»؛ لأنه قدم آراءه في إطار فلسفة الأخلاق، ولكن بروح لا تخلو من تهكم، وذلك في كتابه ذائع الصيت في هذا المجال: (**حول أخلاقيات التعذيب**) (On the Ethics of Torture)؛ ويتلخص رأي شتاينهوف في مبدأ بسيط على النحو الآتي: «التعذيب مبرر في بعض الظروف الضيقة، ولاسيما في بعض حالات الدفاع عن النفس». وعلى الرغم من وجود مؤلفات أخرى تقوم على الدفاع عن التعذيب إلا أن ما يميز كتاب شتاينهوف هو رده على الكتّاب المناهضين للتعذيب من أمثال ديفيد لوبان (David Luban)، وهنري شو (Henry Shue)، وديفيد سوسمان (David Sussman)، وجيرمي والدرون (Jeremy Waldron). ويعَرف شتاينهوف التعذيب بأنه «معاناة بدنية متكررة لغير الأغراض الطبية»، وهو يستبعد الألم النفسي؛ فللناس جميعاً الحق في الدفاع عن أنفسهم ضد العدوان غير المشروع، وخاصة إذا كان العدوان يهدد الحياة.

يرفض شتاينهوف التعذيب السادي والعقابي، ويرى ضرورة التعذيب الاستجوابي دفاعاً عن النفس، ويورد في ذلك أمثلة واقعية تجعله يقف على أرض صلبة من أمثال «القذرة هاري» (سيناريو خطف

20- Sam Harris (25/5/2011), in Defense of Torture, HUFFPOST, https://m.huffpost.com/us/entry/8993 (18/10/2017).

الأطفال)، وحالات داشنر (Daschner) وموك (Mook)، حيث قبضت الشرطة الألمانية على الخاطفين الذين رفضوا الكشف عن المكان الذي كانوا يخفون فيه ضحاياهم المعرضين لخطر كبير. وفي قضية داشنر، تعرض الخاطف للتهديد بالتعذيب للإفصاح عن مكان الطفل المخطوف، دون أن تعرف الشرطة أن الطفل كان قد قتل في ذلك الوقت. وفي قضية موك تم إنقاذ الطفل، الذي كان قد سُجن في صندوق خشبي، عندما كشف الخاطف عن المكان بعد تعرضه للضرب.

ففي كل حالة من هذه الحالات، قامت الشرطة بتعذيب الخاطفين، وحصلت على معلومات عن مكان إخفاء الطفل. وإن كان من المأساوي أن طفل داشنر كان ميتاً بالفعل، إلا أنه تم إنقاذ طفل موك.

وهنا يتساءل شتاينهوف: «لماذا يكون التعذيب الاستجوابي في مثل هذه الحالات سلوكاً غير أخلاقي؟... كذلك، إذا كان التعذيب هو الخيار الوحيد، فلا يهم أن يفشل في بعض الحالات، خاصة إذا كانت هناك فرصة للنجاح... وإذا كنا نستخدم القوة المميتة في الدفاع عن النفس، فلماذا لا نستخدم التعذيب إذا كان هو الخيار الوحيد؟»[21].

يلاحظ أن شتاينهوف يحرص على تأكيد أن التعذيب يكون مشروعاً «إذا كان هو الخيار الوحيد»، وهذا هو الأساس القانوني لتشريع الدفاع عن النفس؛ أي أن يكون استخدام القوة المفرطة هو الوسيلة الوحيدة لرد الاعتداء. وعلى الرغم من أن شتاينهوف يبرر التعذيب في أضيق الحدود، ويرفض مأسسته (تحوله إلى عمل مؤسسي منظم في الدولة)، إلا أن آراءه وُوجهت بالنقد الشديد من قبل الداعمين لاتفاقيات مناهضة للتعذيب.

أما جريجوري فريد (Gregory Fried)، من جامعة سوفولك، فيرى أن أمثلة شتاينهوف مستمدة من حالات فردية خاصة داخل المجتمع، لكن ماذا عن تطبيق المبدأ نفسه على مستوى الدولة التي تدافع عن نفسها ضد العدوان الأجنبي؟ فإذا كان شتاينهوف يرى أن حالات الدفاع عن النفس التي تبرر التعذيب قليلة داخل الدولة فإنها كثيرة جداً على مستوى الدول. ففي زمن الحرب، يرتفع عدد الأعداء الذين يحتمل أن ينقذوا معلوماتهم بشكل كبير؛ الموظفون الميدانيون الذين لديهم معرفة بشن هجمات وشيكة، القادة المدنيون الذين لديهم معرفة بالخطط الاستراتيجية الشاملة، العلماء الذين لديهم معرفة بأنظمة الأسلحة، وما إلى ذلك، هل يمكن تعذيبهم بعد القبض عليهم[22].

21- Quoted From: Gregory Fried (2014), «On The Ethics of Torture», Notre Dame Philosophical Review: ndpr.nd.edu/news/on-the-ethics-of-torture/(21/10/2017).

22- المرجع المذكور.

وتنبع أهمية هذا النقد من أنه يكشف عن المنظور الذي يحكم سياسات الولايات المتحدة بعد (11) سبتمبر، ويتخذ من مقولة «الحرب على الإرهاب» دفاعاً عن النفس سنداً قانونياً لتبرير تجاوزاتها كما حدث في سجني أبو غريب وجوانتانامو. والحقيقة أنّ تعذيب إرهابي إسلامي -بهذا المعنى- لتجنب انفجار قنبلة موقوتة من شأنها أن تقتل الآلاف من الأمريكيين الأبرياء، أو الإسرائيليين، وفقاً لمبدأ شتاينهوف، يستلزم أيضاً تبرير تعذيب إرهابي مسيحي أو يهودي إذا كان باستطاعة المرء أن يتفادى حملة تفجير من قبل القوات الجوية الأمريكية أو الإسرائيلية من شأنها أن تقتل الآلاف من الفلسطينيين والعراقيين أو الأفغان الأبرياء.

وفي كل الأحوال يلاحظ أن فلسفة التعذيب أو أخلاقيات التعذيب التي تعرضنا لها حتى هذه اللحظة إنما تنصب في الغالب على قضية المشروعية، ومحاولة الإجابة عن السؤال: إلى أي مدى يمكن أن يكون التعذيب سلوكاً مبرراً؟ وهي مباحث تبعد عن خبرة الألم نفسها التي يعيشها الضحية. وفي هذا السياق يحدثنا ديفيد سوسمان في دراسة مهمة ومطولة بعنوان: (**ما الخطأ في التعذيب**) (What>s Wrong with Torture)، فيرى أن تجنب فلسفة الأخلاق الحديثة الخوض في مسألة التعذيب ومدى مشروعيتها إنما يرجع إلى أن التعذيب ينطوي على درجة من الألم والخوف لا يمكن وصفها تماماً، نظراً لأنها تختلط بأشكال أخرى من العنف مثل الإكراه والحرمان من النوم والاستجواب المطول. لايرمي سوسمان إلى تقديم أجوبة -كما يصرح في دراسته- وإنما يعمل على توسيع مفرداتنا النظرية حول قضية التعذيب حتى يمكن تقديم الإجابات الصحيحة حول الإشكاليات التي تثيرها ممارسة التعذيب في حياتنا المعاصرة خاصة في ظل سياسة «الحرب على الإرهاب» التي تم رفع لوائها بعد أحداث (11) سبتمبر، وفي ضوء اتفاقية مناهضة التعذيب الدولية.

يتساءل سوسمان عن السمات التي تميز التعذيب من غيره من أشكال العنف التي تولّد ألماً جسدياً كبيراً لدى الضحية. وفي ضوء هذا التساؤل يعمل سوسمان على تحليل العلاقة التي بين الضحية من ناحية وبينها وبين الجلاد وفعل التعذيب من ناحية أخرى، وفي هذا الصدد يقول: «إن التعذيب يدفع الشخص الضحية إلى موقف التواطؤ ضد نفسه من خلال آثاره وعواطفه الخاصة، حتى إنه يواجه نفسه في الوقت ذاته عاجزاً، وإن كان متواطئاً بشكل نشط في انتهاكه الخاص. وهكذا يبدو أن التعذيب ليس شكلاً متطرفاً من القسوة فحسب، بل هو مثال بارز على نوع من خيانة الذات القسرية، أقرب إلى الاغتصاب منه إلى الأنواع الأخرى من العنف التي تتسم بها الحرب أو أعمال الشرطة»[23].

23- David Sussman, (16 December, 2014), What's wrong with torture?, Wiley Online Library, onlinelibrary. wiley. com/doi/10,1111/j.1088 - 4963, (21/10/2017).

هذا عن علاقة الضحية بنفسها، أما عن علاقتها بالجلاد، فيحللها سوسمان بقوله: «بالإضافة إلى الإيذاء المتعمد للألم الشديد، يبدو أن التعذيب يقتضي أن يوضع مرتكبوه وضحاياه في بيئة اجتماعية مميزة. ويجب أن يكون ضحايا التعذيب مدركين لكونهم تحت رحمة معذبهم تماماً. هذا الشرط ينطوي على عنصرين متميزين»[24].

والعنصران اللذان يشير إليهما سوسمان هما: أولاً: كون الضحية تحت رحمة الجلاد (المعذِّب) حيث يتطلب ذلك أن تكون هناك علاقة غير متناظرة من الاعتماد والضعف بين الطرفين، وحيث تكون ضحية التعذيب غير قادرة على الهرب أو الانتقام من معذبها، ثانياً: يجب على ضحية التعذيب أن ترى نفسها غير قادرة على طرح أي مقاومة أخلاقية أو قانونية حقيقية لمعذبها. وفي المقابل، إن المعذب في وضع يسمح له بطلب أي شيء من ضحاياه كما لو كان حقاً قابلاً للإنفاذ، فالضحية في وضع الضعف الكامل والمعذِّب (الجلاد) في وضع السيطرة الكاملة.

وتترتب على ذلك نتائج عديدة من أهمها أن الضحية لا تعرف شيئاً عن معذبها سوى ما يريدها أن تعرفه. وحتى إذا كانت الضحية مستعدة لتقديم المعلومات والاعترافات التي يبدو أنها مطلوبة، فلا يوجد لديها ما يدعوها للاعتقاد بأن المعذب سيقبله بدقة وأمانة كاملة. بل ستظل تتعرض للتعذيب «فقط للتأكد»، أو لسبب آخر تماماً، أو دون سبب على الإطلاق، وهي لا تستطيع التحقق من أي ادعاء يقوم به معذبها، ولا تعتمد على أي وعود أو ضمانات يقدمها، وهو الأمر الذي يهدم الثقة بين ضحية التعذيب والمعذِّب.

ويخلص سوسمان -في النهاية- إلى أن الأهم ليس هو الألم والخوف، ولكن حقيقة أن الألم يُدار بوساطة شخص آخر، وأن الضحية لا تستطيع الهرب أو الانتقام، يقول: «في التعذيب، لن يتم القضاء على إرادة الضحية، كما هو الحال في الموت، ولكن تتحول إلى مجرد مكان للمعاناة، كشيء يدرك نفسه كهيئة متوافرة ومشبعة بالإرادة النشطة للآخر»[25]؛ أي أن الجسد يتوقف عن أن يكون للضحية، ويصبح بدلاً من ذلك منتمياً إلى الآخر الذي يمارس عليه إرادته ويعبر من خلاله عن نفسه.

24- المرجع المذكور.

25- المرجع المذكور.

ثانياً: خبرة الألم:

في القسم الأول من الدراسة، تحدثنا عن إشكالية التعذيب، وهي الإشكالية التي تطلبت منا الخوض في مسائل نظرية ومفاهيمية متعددة وعلى رأسها مفهوم «التعذيب» وتاريخه وأخلاقياته. وحتى هذه الحدود، فإننا مازلنا نعالج التعذيب بوصفه مفهوماً من الخارج. وفي المقابل تحاول دراستنا ألا تقف عند هذه الحدود الخارجية، أو ما يمكن تسميته بالبحث الأفقي، لنغوص في عمق التجربة على نحو ما عايشها ضحايا التعذيب، وهي زاوية تنتمي إلى البحث الرأسي، وتعتمد -في الغالب- على الرؤية الفينومينولوجية التي تحرص على الإمساك بلحظة التقاء الوعي بالألم (جسدياً ونفسياً).

وبهذا المعنى سينقسم هذا القسم إلى ثلاثة مباحث أساسية هي: الوعي ما قبل الألم، الوعي المتألم، الوعي ما بعد الألم.

1- الوعي ما قبل الألم:

في هذا المبحث سنحاول الاقتراب من حالة الوعي لدى ضحايا التعذيب قبل دخولهم السجون وخوض التجربة، في محاولة للكشف عن بنية هذا الوعي، ولمعرفة إلى أي مدى كان الوعي مستقراً أو مضطرباً، متوافقاً مع الحياة والعالم أم متنافراً. وهل ثمة مقدمات راسخة في هذه البنية من شأنها أن تؤدي إلى التعذيب بحيث يتحول التعذيب في هذه الحالات إلى ضرورة منطقية تتسق فيها النتائج مع المقدمات؟

في رواية أيمن العتوم (**يا صاحبي السجن**) يحدثنا باستفاضة عن هذا الوعي، الوعي المتحرر قبل الوصول إلى السجن. هي رواية أدبية، لكنها تعكس تجربة الكاتب الحقيقية في السجون الأردنية. يبدأ هذا الوعي بنحو ما يصفه العتوم في أمسية شعرية في عجلون، فيقول: «عجلون التي ترتفع في سماء التاريخ شامخة، هي أم بارة بأبنائها... وأنا أحد أبنائها... ودعتني ذات مساء إلى قلعتها، وحين تدعوك أم مثلها، فلا يمكن أن تتأخر أو تتذرع بالأعذار الواهية... تعرف هذه الأم أن الشاعر الساكن في أعماقي أبرّ بها مني، فلا تفوت فرصة واحدة لمثل هذا اللقاء دون أن تستميله بقصيدة ينثرها لآلئ أمام قدميها، طالباً منها الدعاء...»[26].

فالوعي هنا منجذب ومستجيب، منجذب للتاريخ الماضي وللجغرافية الحاضرة ومستجيب للأم الرؤوم التي لا تنسى أبناءها، وتدعوهم دائماً للقاء. والوعي هنا أيضاً، ليس وعياً بسيطاً أو عادياً، مسطحاً كما الوعي اليومي المبتذل، لكنه وعي شاعر... وعي يستوعب الوجود ويحتوي التاريخ بداخله.

26- العتوم، أيمن، يا صاحبي السجن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2013م، ص8.

إنه وعي مسالم، لكنه غير مستكين، لأنه مفعم بروح اللحظة ومدرك لحجم المعاناة التي تقع على رفقائه في المجتمع وفي الإنسانية، فيقول واصفاً تجربته في إلقاء الشعر: «... فمنذ احترفت الشعر، واحترقت بلهبه المقدس، كان صوت بكائي يرافقني أكثر مما يرافقني إيقاع غنائي... وقفت كأي مواطن أتلو يومياتي في القلعة، وابتدأ الإيقاع على لحن الجوع والفقر في قصيدة: 'يوميات مواطن'، ولعل الشعور بالجوع يورث النقمة لدى بعض المترفين، أو لعلك ترتكب جريمة، حين تفتح عيون المتخمين على واقع الجوع والفقر والتهميش، ولعل شاعراً مثلي لم يكن يحق له -في عرف الدولة بالطبع- أن ينحاز إلى جانب الفقراء...»[27].

الوعي هنا، إذاً، كان مأزوماً، كان وعياً حقيقياً بطبيعة اللحظة التاريخية، وطبيعة الظلم الاجتماعي، والقهر السياسي. وهنا تأتي لحظة القبض على الشاعر كنتيجة منطقية في سياق الفهم الإيديولوجي للدولة لمعنى الحرية ولمعنى الفن.

وفي رواية (**العسكري الأسود**) ليوسف إدريس يقص لنا تجربته في سجون عبد الناصر، لكنه يقوم بدور الراوي. فالسجين في هذه الرواية هو «شوقي» صديق الراوي في الجامعة وفي العمل في مهنة الطب بعد التخرج. وعلى الرغم من أن الرواية تركز على طبيعة العلاقة بين الضحية والجلاد، في خبرة «الوعي المتألم»، وتكشف عن التغييرات التي طرأت على «الوعي بعد الألم» إلا أنه يقدم لنا صورة سريعة حول «الوعي قبل الألم» لدى شوقي زميله -المختلف معه سياسياً- فيقول عنه، واصفاً شخصيته: «... كان أحد زعماء الكلية، وأحد زعماء مذهبه، ولكنه أبداً لم يكن ذلك المتهوس الأحمق الذي لا يفلح معه تفاهم أو نقاش... كان دائماً على استعداد لمناقشة أكثر الآراء بعداً عن رأيه، يرحب بالجدل بابتسامة واثقة، ولا يثور... وكثيراً ما كنت أتحسر، وأعتبر أن عيبه الأكبر أنه في المعسكر الآخر...»[28].

فالوعي غير المتألم لدى شوقي هو وعي متفتح، يستوعب الآخر، ويتقبل الرأي المختلف حتى أنه ينال إعجاب خصومه السياسيين. وفيما يبدو أنه وعي سياسي بالأصالة، ولم يكن وعياً فنياً بمشكلات المجتمع كما كان لدى العتوم.

وهو وعي مفعم بالقوة وبالإرادة، ويدرك تماماً ماذا يريد، وإلى أين يوجّه طاقاته، «فقد كان «شوقي» يتمتع بطاقة إرادة هائلة، وكأنه وُلد وهو يعرف بالضبط ما يريد ومتأكد أنه واصل إليه لا محالة. وكان يبدو وكأن إرادته تلك ترسب إيمانه في قلبه طبقة فوقها طبقة، وكل يوم تزيده عمقاً وتشعباً، بطريقة محال معها من أن يتزلزل إيمانه ذلك بإيمان جديد»[29].

27- المرجع نفسه، ص8-9.

28- إدريس، يوسف، العسكري الأسود، دار العودة، بيروت، (د.ت)، ص14.

29- المرجع نفسه، ص15.

لا يبدو أنه وعي مأزوم، ولكن ربما كان إلى الوعي الشقي أقرب، فهو يمارس الفكر والتأمل السياسي، ويمارس الجدل، وهو يقف على أرض صلبة قوامها قناعاته الذاتية بما يؤمن وبما يريد. ويكفي أنه لا يحمل ضغينة لأحد، بل كان يجادلهم بالحسنى، ولكن هل تكفي تلك المقدمات حتى يستمر ذلك الوعي في العيش في سلام وسط أقرانه المثقفين معه والمختلفين. تأتي الإجابة الصادمة على لسان الراوي: «إلى أن حدث ذلك الحادث السياسي الذي هز البلاد كلها، وقبض على 'شوقي'، وأدخل السجن تمهيداً لمحاكمته»[30].

وبالمقابلة للوعي المتألم أو السجين يقدم مروان البرغوثي في كتابه (**ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي**) صورة للوعي قبل الألم، وهو صورة الوعي المثقف، المنخرط في الحياة بكل تفاصيلها، متداخلاً مع مفرداتها، متوحداً مع روحها وملامحها، فعن الحياة في رام الله قبل الاعتقال يقول: «... هنا لا تسمع ضحكات الصغار أو الأولاد في الشوارع، ولا صوت الباعة على دوار المنارة في رام الله، بائع الجرائد والكعك والفلافل والحلويات»[31].

وتتبدى ملامح هذا الوعي المثقف، المتبني لمواقف وقضايا اجتماعية شديدة الارتباط بالحياة والناس، في نظرته للمرأة، ومدى احترامه لمكانتها ولدورها الفاعل في المجتمع، حتى أنه يربط بين المرأة والحياة... فوجود المرأة علامة على الحياة، وغيابها علامة على الموت، فيقول بلغة أدبية بديعة: «... إنني طوال حياتي من أنصار المرأة، وداعم لحقوقها كاملة، وأعتبر نفسي مناضلاً من أجلها لإيماني أن عظمة أي مجتمع تتحدد في جانب رئيسي بمكانة المرأة فيه... هناك لا تشم عطر النساء الذي يملأ الروح ويوقظ الإحساس، ولا تلفت انتباهك امرأة مارة في الشارع، ترقب العيون جمال فستانها أو عينيها أو شعرها أو مشيتها. هنا لا وجود لحس النساء، لذا لا وجود للحياة، فالحياة حيث وجدت المرأة وحيث لا تكون حياة طبيعية أو حقيقية»[32].

وبين العلاقة بالمرأة والعلاقة بالكتاب تتوزع اهتمامات الوعي المثقف. فالمرأة حياة حسية تشبع الحواس وتملأ الروح، والكتاب حياة داخلية عمادها الخيال تحلق بالإنسان إلى آفاق بعيدة أرحب من الواقع الضيق، وتمنحه القدرة على الاستمرار مهما ضاقت به السبل وأظلمت الدنيا. والكتاب كالمرأة عشق واشتهاء، يقول: «... كم كنت أستمتع في الماضي بالتجول في المكتبات واختيار الكتب، وأنا أشتهي بعض الكتب كما يشتهي العاشق حبيبته... من متع الحياة قراءة كتاب تحبه وتندمج فيه وتستمتع بمطالعته، وخاصة في السجن... إن

30- المرجع نفسه.

31- البرغوثي، مروان، ألف يوم في زنزانة العزل الانفرادي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2011م، ص128.

32- المرجع نفسه.

قراءة رواية جميلة لا يفوقها متعة أي أمر آخر، فهي تحرر الإنسان من هذا المكان، وتخرجه من الزنزانة، حيث يعيش أحداث الرواية خارج الجدران والأسوار والأسلاك الشائكة»[33].

وعن صورة أخرى من صور «الوعي قبل الألم»، يحدثنا دستويفسكي في رواية (**مذكرات من منزل الأموات**). وعلى الرغم من أن الرواية لا تتناول حياة المعتقلين السياسيين داخل السجون، تُعدُّ وثيقةً مهمة عن المعاملة غير الإنسانية التي كان يلقاها المسجونون في سيبيريا في واحد من عصور الظلام التي خيمت على المجتمع الروسي، وعبّر عنها دستويفسكي ببلاغة وعمق شديدين. الوعي الذي يحدثنا عنه هنا ليس وعياً سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً، لكنه وعي من نوع خاص، وعي مرعب ومخيف، لأنه وعي شيطاني دأب على ممارسة الشر. فأصحاب هذا الوعي هم المجرمون الذين تم سجنهم بسبب جرائمهم التي ارتكبوها في حياتهم ويمضون العقوبة في الأشغال الشاقة تكفيراً عنها.

يقول دستويفسكي: «كان بين السجناء أناس ارتكبوا جريمة قتل عن طيش وخفة، وكان بينهم أناس احترفوا القتل احترافاً، كان بينهم قطاع طرق وقادة قطاع طرق، وكان بينهم مجرد لصوص أتقنوا صناعة العثور على مال في جيب أحد المارة، أو اختطاف أي شيء من فوق مائدة، وكان بينهم أناس لا يستطيع المرء أن يقول لماذا ولا كيف أدخلوا السجن»[34].

ويرجح أن تكون الفئة الأخيرة التي يتحدث عنها دستويفسكي، ولا يستطيع المرء أن يقول لماذا ولا كيف أدخلوا السجن، هي فئة المسجونين السياسيين، لأنها -في الغالب- تدخل السجن دون أن ترتكب أي من الجرائم التي تحدث عنها دستويفسكي من قتل وخطف وسرقة. فالسجين السياسي تنحصر تهمته، في الغالب، في إثارة الشغب ومحاولة قلب نظام الحكم.

وأهم ما يميز الوعي الشرير أنه وعي غير نادم، لأنه لا يشعر بالذنب تجاه فعلته مهما كانت بشاعتها. فيقول دستويفسكي: «... إنني لم ألاحظ خلال عدة سنين أية علامة من علامات الندامة، ولا أيسر أثر من آثار الأسف للجريمة المرتكبة، وأن أكثر السجناء كانوا في قرارة نفوسهم يعتقدون أن من حقهم أن يفعلوا ما يحلو لهم»[35].

وربما يكون السبب في هذه الجفوة واللامبالاة علاقته بالمجتمع، فالمجرم، في الغالب، هو شخص غير متصالح مع الآخرين، رافض لهم، وكاره لوجودهم، حتى لو كانوا أقرب الناس إليه، على نحو ما فعل أحد

33- المرجع نفسه، ص129.

34- دستويفسكي، ذكريات من منزل الأموات، ترجمة سامي الدروبي، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1985م، ص28.

35- المرجع نفسه، ص34.

المساجين عندما قتل والده طمعاً في الميراث. وفي هذا الصدد يقدم دستويفسكي تحليلاً اجتماعياً لهذا الوعي، فيقول: «إن المجرم الذي تمرد على المجتمع يكره المجتمع، ويعد نفسه دائماً على حق: فالمجتمع هو المخطئ في نظره، أما هو فليس بمخطئ. ثم إنه قد عوقب، لذلك يرى أنه قد أصبح بريئاً»[36].

ويلاحظ أن كل هذه الأنماط من الوعي السابق على الاعتقال إنما هي أنماط تتعلق بالنشاط والحركة، ما يعني أن السلطة لا تقبض على الوعي الخامل، الذي هو في حالة سكون، أو الذي هو متكيف ومتلائم مع الأوضاع المحيطة. الوعي المطلوب للاعتقال هو الوعي القلق، المتمرد، الرامي إلى التغيير، على مستوى الفرد أو مستوى الجماعة، غير أنه في الحالة الأولى يكون غير مشروع؛ لأنه موجّه ضد المجتمع ولتحقيق مصالح ذاتية خاصة، بينما هو في الحالة الأخيرة وعي مشروع يعمل لصالح المجموع ضد قوى أعلى غير عادلة. واللامشروعية في حالة الوعي الفردي الشرير يقررها القانون، بينما اللامشروعية في حالة الوعي المثقف تقررها سياسة الدولة والإيديولوجية الحاكمة التي تحرص في النهاية على حماية نفسها ومصالحها.

وعلى الرغم من ذلك، يقدم عبد الرحمن منيف لنا نموذجاً مختلفاً من الوعي قبل المتألم، لا يتمتع بالنشاط أو الحركة، ولا يمارس أيّ نوع من التمرد ضد السلطة أو ضد المجتمع، لكنه يبقى وحيداً مغترباً، يحيا متأملاً لذاته وللآخرين دون أن يكون مشاركاً في تيار الجماعة المندفع بوتيرة آلية وروتينية نحو أنماط من السلوك معدة سلفاً، فيحدثنا منيف عن لحظة القبض قائلاً: «صحيح أن اعتقالي لم يكن متوقعاً، إذ لم أكن معروفاً لا بالاسم ولا بالهيئة، وخاصة أني حديث الإقامة في موران، لكن ترددي على السوق باستمرار، ولأنّي لم أشترك في عمليات البيع والشراء، أو حتى المساومة، فقد أصبحت، دون أن أدري، موضع رقابة عدد من المخبرين»[37].

في بعض الأحيان يكون الوعي المغترب هو الأكثر لفتاً لانتباه المخبرين، ومن ثم يكون الأولى بأفعال التحريات والمراقبة، فيقول منيف في الموضع ذاته: «كان المخبرون يكتفون بالمراقبة، وينشغلون أكثر ما يكون بالغرباء والأخبار التي يحملونها». لكن -مع ذلك- تظل القاعدة العامة هي اصطياد الوعي المتحرك، النشط، حتى لو كانت هذه الحركة مجرد تعبير عن التمرد باللسان، فنقرأ: «... إلا أن هؤلاء المخبرين الذين ظلوا على أطراف السوق يراقبون ويتابعون، ويتنصتون إلى ما يدور، بدؤوا يخافون مما يتردد على ألسنة الناس من الشتائم والتحديات، وحين انتقلت تلك الشتائم إلى الرؤساء ثمّ إلى القصر، فإن الخوف زاد أكثر من قبل، ما أدى إلى حملة واسعة من الاعتقالات، شملت الكثيرين»[38].

36- المرجع نفسه، ص35.

37- منيف، عبد الرحمن، الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1991م، ص151.

38- المرجع نفسه، ص150.

وقد لا يكون الوعي متحركاً متمرداً أو ساكناً مغترباً، ومع ذلك يتم القبض عليه على سبيل الخطأ، أو رغبة في إيجاد ضحية لتلفيق التهم. حدث ذلك مع بطل رواية (**محال**) ليوسف زيدان عندما سافر إلى أفغانستان للعمل مصوراً صحفياً، فإذا هو يقع أسيراً للمخابرات الأمريكية التي تحاول أن تلصق به التهم وتنتزع منه الاعترافات عن أمور لا يعرف عنها شيئاً من خلال أسئلة من هذا القبيل: «لماذا تشعر بالعداء للولايات المتحدة والغرب عموماً؟»، «مارأيك في تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر الماضي؟»، «هل قابلت أسامة بن لادن من قبل؟». ويتبدى عبث عمليات القبض والتعذيب والتحقيق في عبارة المحقق الأخيرة عندما يقول: «يبدو أننا تورطنا فيك، ولابد من إبعادك فوراً عن سجن قندهار»[39].

وهي العبارة التي علق عليها زملاؤه من المسجونين في الزنزانة قائلين: «... إن كلاب الأمريكان أدركوا أخيراً خطأهم، واعترفوا به، مع أنهم نادراً ما يعترفون بما ارتكبوه في حق الآخرين، فهم يرون أنفسهم دوماً في الصواب، مع أنهم في العين الحمئة»[40].

2- الوعي المتألم:

«الوعي المتألم» هو الوعي السجين، الواقع عليه التعذيب الجسدي والنفسي، هو الإنسان بعد أن فقد حريته وقدرته على الاختيار... غير أن الانتقال من مرحلة «الوعي قبل الألم» إلى مرحلة «الوعي المتألم» لا تستغرق زمناً طويلاً، فهي تحدث في لحظة حاسمة تقرّر فيها السلطة توقيع عملية القبض على الوعي المراد سجنه بعد طول مراقبة، أو على سبيل الخطأ والتلفيق، كما رأينا في السطور السابقة. وعلى الرغم من سرعة التحول بين المرحلتين للوعي، يكشف لنا التوقف عند لحظة القبض على الوعي عن الكثير من الدلالات.

ففي رواية (**محال**) يصف زيدان لحظة الوعي بالقبض وفقدان الحرية وضبابية المصير قائلاً: «في الصباح الباكر جاءت سيارة عسكرية أخذته من حيث لا يعلم، إلى حيث لا يعلم. قبل ركوبه لم يتحدث أحد إليه بشيء، ولما رأى حوله في صندوق السيارة المغلقة خمسة من الرجال ذوي الوجوه العربية واللحى المستطيلة، استغرب، ولما وجدهم يشيحون عنه بأنظارهم، ولم يردوا على سلامه أو كلامه منذ حشر الجنود بينهم، توجس، ولما سارت بهم السيارة لساعات من دون توقف، خاف، ولما أنزلوهم أمام طائرة أمريكية، ووضعوا في رؤوسهم أكياساً سوداء، أدرك أنه صار في زمرة الهالكين»[41].

39- زيدان، يوسف، محال، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2012م، ص242.

40- المرجع نفسه، ص243.

41- المرجع نفسه، ص221.

ويلاحظ أن لحظة القبض -كنقطة تحول في وعي السجين- تتسم بالمفاجأة والضبابية. فالسجين يكون مسلوب الإرادة إزاء قوة أكبر تستطيع أن تقتاده إلى الوجهة التي تريد. وهي الوجهة التي لا يعرف عنها شيئاً، ولا يراد له أن يعرف، ويُعدُّ وضع الكيس الأسود على العيون رمزاً قوياً على إظلام الوعي على عالم الحرية والإرادة والمعرفة تمهيداً لانفتاحه على عالم القهر والظلام والآلام.

إنها لحظة مسرحية بامتياز، حيث ينقلنا فعل الإظلام من مشهد إلى مشهد بعد تبديل الديكور في تراجيديا مأساوية مفجعة.

ويصف لنا زيدان تلك الخبرة اللحظية التي يعيشها بطل (**محال**) في الجزء الثاني من الرواية (**جوانتانامو**) عندما يقع أسيراً لظلمة الكيس الأسود الذي يطفئ أنوار العالم، لكنه يعجز عن إطفاء أنوار الروح للصابرين من المؤمنين، فيقول: «... وبلا سبب مفهوم وضعوا حول رأسي كيساً من قماش أسود يرد النظر ويكتم الأنفاس، وحول جسمي لفوا سلاسل تقيد اليدين بالقدمين... فلما صدمتني الحقائق أغمضت عيني لأدفع عني بالظلام الظلام، وهمست في نفسي مواسياً لها بكلمات من مثل: ما الأسر إلا استيلاء على جسم سجين، ولكن لا سبيل لحبس الأرواح. والبشرى ما كانت يوماً للمستريحين الهانئين، وإنما للصابرين من المؤمنين»[42].

وعن هذه المفارقة الجدلية، التي بين ظلام الدنيا الذي انطفأ فجأة لحظة القبض وبين نور الروح يحدثنا العتوم، على الرغم من أنّ رجال السلطة لم يغطوا عينيه، اختاروا الفجر -كالمعتاد- ليكون موعداً للقبض، ومضوا به في شوارع وطرق مظلمة، فيقول: «كانت عيوني تُقبل الأرض، وأعمدة الروح تنير الطريق، والسماء تبتسم للتراب، والأرض والطريق والتراب كلها مجتمعة تشكل الجسد الجديد لمحبوبتي القديمة... أنظر إلى الأرصفة والطرق، كنت قبل هذا اليوم أحفظها غيباً، أما اليوم فأنا أرسمها، أكاد أجزم بأن سيارة الأمن سارت في الطريق الذي رسمته في مخيلتي، رغم أنه لم يكن غريباً على أحد فينا، ولكنه كان من صنعي أنا!»[43].

نحن أمام صراع من نوع خاص يحاول المعتقلون رسم ملامحه بكلّ ما لديهم من إرادة حتى لحظة القبض. صراع بين النور والظلمة، نور الروح وظلمة السجن، نور الحق وظلمة الباطل، فإلى أيّ مدى يستطيع أن يصمد هذا النور أمام طغيان الظلام الكاسح؟ وإلى أيّ مدى تستطيع الإرادة أن تستمر، وأن تحتفظ بمكانتها داخل النفس المقهورة، الواقعة تحت وطأة الحبس والعزل والتعذيب؟

42- زيدان، يوسف، جوانتانامو، دار الشروق، القاهرة، 2014م، ص9.

43- العتوم، أيمن، مرجع سابق، ص19.

عن نور الروح وقوة الإرادة يحدّثنا عبد الرحمن منيف: «... لو هبطت السماء على الأرض، لو قطعت إلى آلاف الأجزاء، لو فعلوا بي أيّ شيء، فلن ينالوا منّي كلمة واحدة... في تلك اللحظة لم أكن أدافع عن نفسي، عن جسدي، كما لم أكن أحس بالألم. كنت أمتلئ بشيء غامض، لكنه طاغٍ وكثيف، وقد افترضت أنّ أيّة تضحية في سبيل هذا الشيء ليست مقبولة فقط بل ضرورية إلى أقصى الحدود»[44].

إزاء هذه الإرادة الحديدية النابعة من مصدر روحي ونفسي غامض لا يملك الجلاد سوى أدوات البطش والقهر والتعذيب، وهي أدوات ضعيفة ومتهالكة قياساً بقوة الروح... وعن لحظات التعذيب يقول البرغوثي: «لقد كان الحرمان من النوم من أقسى اللحظات والأيام التي عشتها، ولم أتوقع يوماً أن يكون عدم النوم آلات تعذيب بهذه المرارة والقسوة، مع أنني لست من محبي النوم، ومعتاد على السهر حتى ساعات متأخرة من الليل وعلى مدى أيام متتالية، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً، حيث أُجلست على كرسي مقيد اليدين والقدمين، ومعصوب العينين، وفي حالة صعبة ومتعبة للجسم»[45].

وإذا كان الحرمان من النوم هو إحدى وسائل التعذيب، التي تركت أثرها في نفس البرغوثي، نظراً للآلام البدنية القاسية التي كانت مصاحبة لقلة النوم، فإنّ مصطفى أمين قد عانى -من ضمن ما عانى في سجون عبد الناصر- من منعه من الأكل والشرب في ظلّ طقس شديد الحرارة وظروف صحية معتلة لا تحتمل وطأة الجوع والعطش. وعن هذا الشعور يحدّثنا أمين في كتابه (**سنة أولى سجن**) قائلاً: «كان من بين وسائل التعذيب التي لجؤوا إليها أن صدر قرار بمنعي من الأكل والشرب، ولكن العطش عذاب لا يحتمل. وخاصة أننا في أواخر شهر يوليو. الحرارة شديدة قاسية. وأنا مريض بالسكر. ومرضى السكر يشربون الماء بكثرة»[46].

والحقيقة أنّ الحرمان من النوم أو الأكل أو الشرب ربّما لا يكون هو الألم الأقسى الذي يتعرض له المعتقلون، وخاصة إذا قسناه بوسائل التعذيب البدائية التي كانت تعتمد على سلخ الجلد وتكسير العظام وتقطيع الأوصال، وهي وسائل ظلت مستمرة حتى العصر الحديث، وعانى منها الضحايا محلّ دراستنا كما سنرى، لكنّ الذي يهمّنا في وسائل التعذيب المستخدمة ليس فقط إبراز مدى قسوتها وقدرتها على إيلام الضحايا، لكن أيضاً إبراز خبرة الألم، التجربة الذاتية التي عانتها الضحية واستشعرتها، ثمّ عبّرت عنها في روايتها الفنية أو مذكراتها الشخصية.

44- منيف، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص205.

45- البرغوثي، مروان، مرجع سابق، ص23.

46- أمين، مصطفى، سنة أولى سجن، دار أخبار اليوم، القاهرة، (د.ت)، ص13.

فالحرمان من الماء ربّما لا يكون بقسوة الصعق الكهربائي مثلاً، لكن إبراز خبرة العطش داخل الزنازين لا شكّ سيلقى ضوءاً ساطعاً على قسوة العزل وسوء المعاملة. وهكذا تبدأ الفينومينولوجيا -بوصفها منهج بحث- من التجربة الأبسط صعوداً إلى الكشف عن الدلالة الأعمق للتجارب الأكثر تعقيداً. وفي هذا الصدد يعبر أمين عن فرحته بلحظة العثور على كوب ماء مثلج فيقول: «وما لبثت أن وجدت أنّ الكوب حقيقي. ومددت يدي ولمست الكوب، فوجدته مثلجاً فعلاً. وقبضت على الكوب بأصابعي المرتعشة... وشربت الماء... ألذّ ما شربته في حياتي! لا أعرف طعم الشمبانيا، ولكن الماء المثلج أسكرني... لو كان معي مليون جنيه في تلك اللحظة لأعطيتها للحارس المجهول»[47].

وعن خبرة العطش الروحي يحدثنا أيمن العتوم؛ فالعطش في كلتا الحالتين مَهلَكةٌ والحلم بكوب من الماء يظلّ سراباً بعيداً لا يتحقق؛ يقول: «في هذا اليوم... وبعد أسبوع في الزنازين الانفرادية، وحيداً أهذي، كان العطش إلى رؤية أحد من عائلتي قد بلغ منتهاه، وأحال الجفاف في روحي إلى حالة انهزام عاطفي متنام... كنت قد شعرت بأنني سرت بعيداً في غابة من الأشواك المتشابكة، تفيض بالثعابين من جانبيها، وتكتظ بالثعالب عن بكرة أبيها... ورحت أبحث عن كأس ماء واحدة أروي بها عطشي، فما وجدت إليها سبيلاً»[48].

وتظل العزلة واحدة من الخبرات القاسية التي تضاعف الشعور بألم السجن، فالوحدة تعني أن تواجه الألم وحدك وتصرخ وحدك، ولا يسمع أنينك إلا نفسك. من المهم للسجين أن يجد من يقتسم معه الألم، حيث يتبادلان المعاناة ويشتركان في مكابدة التعذيب والقهر. وفي هذا المعنى يتحدث بطل زيدان: «أهو محال أن أرى ولو طيف إنسان، فأستريح لحظة مما أعانيه ولا أعرف له سبباً؟ كلّ ما حولي محال، فالعتمة تلفني بطبقات ظلام يهيم بعضها في قلب بعض، وفمي مكمم بشريط لاصق لا يمكنني لمسه بأصابعي، وأطرافي مقيدة بإحكام يحول دون التحرك ويجعل التجوال حلماً»[49].

وإزاء هذا العطش الروحي والجفاف العاطفي والإنساني الذي يعانيه السجين يبدأ البحث عن البديل، فيتحرك الوعي قصديّاً إلى الأشياء المادية الصماء ويتبادل معها الحزن والفرح -إذا كان ثمة فرح، وتتحول بدورها إلى كائنات حية تبادل السجين حباً بحب. وفي هذا السياق يحدثنا مصطفى أمين عن سريره الذي في الزنزانة الانفرادية، فيقول: «سريري هو أقرب صديق لي في السجن. إنّني أعيش معه أضعاف ما أعيش مع أي صديق آخر. إنني أنام فيه، وأستعمله كمقعد، وأستعمله كسرير، وأستعمله كمائدة طعام، وأستعمله

47- المرجع السابق، ص14.

48- العتوم، أيمن، مرجع سابق، ص84.

49- زيدان، يوسف، جوانتانامو، ص8.

كمكتب، فإنني أقرأ فيه الكتب المهربة والرسائل المهربة والصحف والمجلات المهربة. وهذا السرير أشبه ببساط الريح. إنه يحملني إلى أنحاء العالم. وأشعر أحياناً أنه تعب معي. إن من عادتي أن أتعب الذين أحبهم وأستريح إليهم»[50].

وعن الألم البدني يحدثنا عبد الرحمن منيف. فالألم الجسدي يهزّ النفس كما الألم النفسي يهزّ الجسد، إنّها دوامة لا تتوقف من السقوط والانهيار، يدخلها السجين ولا يدري متى يخرج منها. حلقة مفرغة ومظلمة، ولا سبيل للخلاص سوى الاستمرار في مكابدة الألم والانتشاء بلوثة مجنونة ومؤبدة. يقول: «لا أعرف كم من الأيام مرّوا. أنا في وضع أقرب إلى الغياب؛ لأن التهدم الذي حلّ بي لم يتوقف، فما أخطأته ضربات الكابلات والعصي والركلات، تولته الحمى ثم الالتهابات. إذ ما أكاد أفيق من التماعات الألم حتى تمسكني الحمى، أحس نفسي وقد تحولت إلى خرقة ممزقة في ريح عاتية. كنت أسمع لأسناني دوياً وهي تصطك، وكانت نوبات الحرارة والبرودة تتلاحقان في سباق لا نهاية له»[51].

وعلى الرغم من قسوة الألم البدني والنفسي، تظلّ خبرة الألم الناجمة عن الذل والمهانة هي الأقسى والأقوى... وهي الخبرة التي سيكون لها أبلغ الأثر في «الوعي ما بعد الألم»، وهي الحلقة الأخيرة في مسلسل التعذيب المرعب. المهانة تأتي من عدم قدرة الضحية على رد الاعتداء. وفي هذا السياق يقدم يوسف إدريس تحليلاً بارعاً لألم الضرب المهين، فالإحساس الحقيقي بالضرب ليس هو مجرد الألم الموضعي للضربة أو الألم العام الناتج عنها، وإنما بألم آخر مصاحب أبشع وأقوى. إنّه ألم الإهانة حين تحسّ أنّ كل ضربة توجه إلى جزء من جسدك توجه معها ضربة أخرى إلى كيانك كله، إلى إحساسك وكرامتك إنساناً، ضربة ألمها مبرح لأنها تصيب نفسك من الداخل... ويصل إدريس إلى ذروة الوصف عندما يقول: «... إن أبشع ما في الأمر أنك لا تحتمل فقط وتصبر ولكنك تزداد استمساكاً بالحياة. وتصل بك حلاوة الروح إلى درجة مخجلة في شدتها وقوتها. وهكذا في مقابل كلّ ضربة هائلة الألم، عارمة القسوة، مهينة، تتلقاها من الخارج، تنهال عليك، من داخلك وذات نفسك ألف لعنة، ألف طعنة، ألف إحساس مخجل مهين تمزق أحشاءك وتذيب، كماء النار، روحك، لأنك لا تموت ولا تريد الموت ولا تزال حياً تتمسك ذليلاً بالحياة»[52].

ومن هذا الشعور المهين، وتلك العلاقة غير المتكافئة بين الضحية التي تتلقى كلّ الألم والذل والتعذيب وبين الجلاد السادي الذي يمارس سطوته على جسد ونفس الضحية، يثور السؤال حول الكيفية التي يتبدى بها الجلاد في وعي الضحية... أي الصورة الذهنية التي تكونها الضحايا عن جلاديها... وفي هذا السياق

50- مصطفى أمين، سنة ثالثة سجن، المكتب المصري الحديث، القاهرة، (د.ت)، ص46.

51- عبد الرحمن منيف، مرجع سابق، ص232.

52- يوسف إدريس، مرجع سابق، ص49.

يقدم البرغوثي صورة فريدة من نوعها، لعلاقة الضحية بالجلاد، صورة فيها عزة وكرامة وإباء، ذلك لأن البرغوثي يتحدث باعتباره رمزاً لشعب محتل يناضل من أجل الحصول على حريته في مواجهة جلاد يرمز لسلطة احتلال غاشمة وظالمة، فكلمات البرغوثي ليست تعبيراً عن علاقة شخص بشخص، ولكن عن دولة بدولة فيقول عن جلاده: «حدقت في عينيه، متذكراً إيّاه يوم كان شاباً يدعى «غزال»، حين شارك في التحقيق معي عام (1978م)؛ أي قبل ربع قرن، وها نحن نلتقي من جديد والمعركة لم تنته بعد... إنها المعركة بين مناضل من أجل حرية شعبه وبلاده، وبين قاتل ومحتل وسجّان وجلاد يرتكب الجرائم، إننا نلتقي وما أزال ممسكاً بيدي راية الحرية والمقاومة»[53].

تبدو العلاقة هنا متكافئة بين الضحية والجلاد، بل إنها لتميل باتجاه الضحية التي تعتز بذاتها وانتماءاتها ودورها الوطني والتاريخي، فيبدو البرغوثي صاحب قضية بينما يبدو جلاده صاحب مصلحة... غير أن التجربة ذات القسوة الشديدة هي تلك التي يمكن أن نعثر عليها لدى مصطفى أمين ويوسف إدريس... فأمين يخصص فصولاً متعددة من كتاباته للحديث عن الجلاد، ويخصص إدريس كتاباً كاملاً يدور حول الجلاد حتى أنه يسمي الكتاب بالصفة التي عُرف بها الجلاد وهي (**العسكري الأسود**).

وتحت عنوان (**ملك التعذيب**) يقدم لنا مصطفى أمين تحليلاً نفسياً متعمقاً للجلادين الذين تم تعذيبه على أيديهم في السجن الحربي: يسري الجرار، وشمس بدران، وحمزة البسيوني، وصلاح نصر، وحسن عليش، فمنهم من كان يجد لذة في القيام بالتعذيب بنفسه، ومنهم من كان يحصل على هذه اللذة من جراء مشاهدة أفعال التعذيب التي يقوم بها الجلادون المساعدون. إنها شخصيات مشوهة ومريضة ولا تجد علاجها إلا في إيلام الآخرين، وفي هذا المعنى يلخص أمين رؤيته للجلادين قائلاً: «والذي لاحظناه دائماً في شخصيات الذين يقومون بعملية التعذيب أنهم عادة من الشواذ. وشذوذهم هو الذي يجعلهم يحسون بالبهجة في عذاب الآخرين. وكلما كان العذاب أشد، كانت النشوة أكبر. إن ضمائرهم لا تستيقظ أبداً بعد هذه العمليات، على العكس، فهم بعد أن ينتهوا من التعذيب ينامون نوماً عميقاً تماماً كما يحدث للمرأة العاشقة بعد أن تكون مارست الحب في ليلة حمراء مع حبيبها»[54].

وهي شخصيات شاذة، وكذلك لديها شعور بالنقص. إنها شخصيات ضعيفة، فاقدة لكل معاني الرجولة، وهي تمارس سطوتها ضد الرجال كنوع من التعويض؛ لأنها غير قادرة على المنازلة والمواجهة الحقيقية مع الرجال إذا ما تمّ فكّ قيدهم وتحريرهم من السلاسل: «إن عملية تجريد الإنسان من إنسانيته تثير اشمئزاز

53- البرغوثي، مروان، مرجع سابق، ص19.

54- أمين، مصطفى، سنة أولى سجن، مرجع سابق، ص33.

الرجل العادي، ولكنها تبهج الرجل الشاذ، وتسعده، وتكون تعويضاً له عما يحس به في داخل نفسه من ذل ومهانة»[55].

ليس هذا فحسب، بل إن شخصيات الجلادين تتسم بقدر كبير من التناقض، فهي تميل إلى الجمع بين اللّذة والألم في وقت واحد، وكأنّ حضور الألم هو شرط الارتفاع باللّذة إلى أقصاها. والغريب أنّ الضحية في هذه الأحوال المتناقضة قد تكون موضوعاً للّذة أو موضوعاً للألم، المهم أن تكون موضوعاً أو أداة في يد جلاديهم يستخدمونها أنّى شاؤوا من أجل إشباع غرائزهم المريضة. فيقول أمين عن حمزة البسيوني أو ملك التعذيب كما يصفه: «وكان ملك التعذيب شخصية مليئة بالتناقضات. يأمر بجلد المسجونين ويأمر بالترفيه عنهم! يقيم المذابح ويقيم الحفلات! وكان يجد متعة لا حدّ لها في أن يقيم في بيته ليلة حمراء. يدعو إليها أسياده والغواني. ويشرب، ويرقص على أنغام صراخ المسجونين المضروبين بصراخ السكارى والراقصات»[56].

وعلى الجانب الآخر يقدم يوسف إدريس صورة للملامح الخارجية للجلاد وهيئته الجافة الصارمة أثناء التعذيب، وقدرته على بث الرعب في نفوس المعتقلين لمجرد سماع وقع خطواته، أو دوران مفتاحه في أبواب الزنازين، فيقول: «... وحين يضرب كان من يراه لا يظنّ أبداً أنه يمتّ إلى الإنسان أو الحيوان بصلة، بل ولا حتى للآلة، فالآلة لا تبدو على وجهها المتعة المتوحشة وهي تضرب. ولحظات قدومه ودخوله العنبر ودوران مفتاحه في القفل، كانوا يعرفونها تماماً وباستطاعتهم أن يميزوها عن غيرها حتى في الحلم، ويستيقظون، رغم خفوتها، على وقعها»[57].

وعلى الرغم من أن إدريس قد نفى عن صورة الجلاد صفة الآلية، على اعتبار أنه أقل من آلة وأحط من حيوان، يظل الطابع الآلي هو المهيمن على أداء الجلادين من طول اعتيادهم على التعذيب، وممارستهم أدق التفاصيل ببراعة ودون تفكير في معظم الأحيان، فما يحكمهم هو العادة من ناحية، والنظام الصارم وتنفيذ الأوامر العليا من ناحية أخرى. وفي هذا السياق يقدم لنا فرانز كافكا صورة معبرة عن الآلية المفرطة التي يتعامل بها الجلادون في الثكنات العسكرية في قصة بعنوان (**في مستوطنة العقاب**).

فالمحكوم عليه كان جندياً اعتاد أن يقدم التحية للنقيب كلّ ساعة، إلا أن النوم غلبه في الثانية بعد منتصف الليل، فقام بضربه بالسوط، وإحالته إلى التحقيق. ويعلق الضابط المحقق على هذه الجريمة قائلاً: «... وكما -لعلك تدرك- فإن من واجبه أن ينهض مع دقات كل ساعة، ويؤدي التحية أمام النقيب، ليس ذلك

55- أمين، مصطفى، مرجع سابق، ص34.

56- المرجع نفسه.

57- إدريس، يوسف، مرجع سابق، ص46.

بالواجب الثقيل، وهو ضروري للغاية كذلك، حيث إن على الجندي أن يكون حارساً كذلك، إلى جانب كونه: خادماً، ويتعين أن يكون يقظاً في أدائه لواجباته»[58].

ويلاحظ هنا أن الخروج على الآلية هو الذي يستوجب العقاب، فالخروج على الآلية هو خروج على النظام، «وأن النظام العسكري ينبغي أن يطبق حتى أقصاه»[59].

ويسهب كافكا، طول القصة، في وصف آلة التعذيب بطريقة روتينية، جافة ومملة، فيقول مثلاً في أحد المواضع على لسان الضابط المحقق: «هناك، كما ترى، نوعان من الإبر نظما في أطر مزدوجة، كانت لكل إبرة طويلة أخرى قصيرة إلى جوارها، تقوم الإبر الطويلة بالوشم، أما الإبر الصغيرة فهي تنفث رذاذاً من الماء لغسل الدم، وإبقاء الوشم نظيفاً، ثم يُساق الدم والماء معاً هنا عبر مجارٍ صغيرة إلى هذا المجرى الرئيسي ثمّ عبر أنبوبة نفاية إلى الحفرة»[60].

وتتبدى الآلية كذلك في تنفيذ التعليمات: «إنني مازلت أستخدم التحقيقات الإرشادية التي رسمها القائد السابق»[61]. وتصل إلى ذروتها في الخطوات المحددة، المحسوبة بدقة لتنفيذ حكم الإعدام، «... فليس من المفروض أن تقتل الآلة رجلاً على نحو مباشر، وإنما بعد فترة، يصل متوسطها إلى اثنتي عشرة ساعة، نقطة التحول غالباً ما تجيء بعد ست ساعات»[62].

وليس بخافٍ أن كافكا، في هذه القصة ذات الطابع الخاص، إنما أراد أن يتخذ من آلة التعذيب رمزاً يعكس آلية النظام وآلية القانون وآلية الجلادين، ليثبت أنّ الجريمة الوحيدة وسط هذه الجرائم اللاإنسانية هي أن تحاول أن تكون إنساناً!!

3- الوعي ما بعد الألم:

في المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل الوعي المعذب نصل إلى «الوعي ما بعد الألم»، وهو وعي السجناء الذي تشكل بفعل السجن والتعذيب، وخرج به المعتقلون لمواجهة الحياة مرة أخرى. فما هي التغيرات التي طرأت على هذا الوعي؟ وإلى أي مدى كانت هذه التغيرات سلبية أو إيجابية؟ يختلف هذا

58- كافكا، فرانز، في مستوطنة العقاب، ترجمة كامل يوسف حسين، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1996م، ص28.

59- المرجع نفسه، ص30.

60- المرجع نفسه، ص31.

61- المرجع السابق، ص33.

62- المرجع السابق.

الوعي بحسب كلّ سجين، ووفقاً لظروف السجن والتعذيب، كما أنه يتوقف على حالة الوعي في مرحلة الألم، وحالته في مرحلة ما قبل الألم.

عن هذه المرحلة يحدثنا عبد الرحمن منيف الذي فقد اليقين بكل شيء، وشعر أنه يقف عند بداية طريق جديدة لا يدري كيف يمضي فيها، خاصة أنه لم يعد يملك سوى وسائل قديمة بالية، فيقول: «... اختلطت عليّ الأمور. ما كان ثابتاً قوياً، واضحاً، أكيداً، لم يعد كذلك الآن. لم أيأس، لكن لم أعد قوياً أو متأكداً بالمقدار الكافي. لن أسلّم، لكن أشعر أن وسائلي القديمة لمواجهة الأيام الآتية لم تعد كافية أو مجدية»[63].

لكن منيف لا يفقد الأمل تماماً، وإنما يحاول أن يفتح لنا ولو طاقة صغيرة من النور، فيواصل حديثه قائلاً في الموضع نفسه: «... قد يصعب عليّ أن أتغير، أن أصبح شخصاً جديداً ومختلفاً، ومع ذلك أشعر أن في داخلي شيئاً يتحرك؟ صحيح ربما يكون هذا الشيء هو الضمير 'لم يعد يرشدني ويقودني سوى الضمير'، وربما يكون الإرادة، المهم أن تكون هناك إرادة، وهذه وحدها يمكن أن تعيد تشكيل العالم مرة أخرى. لا أعرف كيف سيكون عالم الغد، لكن لدى البشر الكثير من الجنون ورغبة الحياة، وهذا وحده كفيل بإيجاد عالم جديد»[64].

وبهذا البريق نفسه من الأمل يخرج العتوم من السجن متجاوزاً كل الآلام متسامحاً ومتصالحاً مع العالم، حتى محبوبته التي أخلص لها الذكرى، وملأ لها القلب بالحبّ حتى لم يعد فيه مكاناً إلا لها، وتركته غير آسفة، فقد صفح عنها وتمنى لها السعادة مع الإنسان الذي تختاره بإرادتها لتواصل معه الحياة... إن السجن لم يستطع أن يكسر السجين هنا، ولا أن يجعله يكفر بمبادئه؛ بل على العكس خرج إلى الحياة ليواصل النضال نفسه بالحب والإخلاص ذاته؛ فالوعي لدى العتوم الذي بدأ سياسياً مأزوماً، صار وعياً رومانسياً وطنياً محباً للحياة وللوجود، وهي نتيجة لا تتناسب مع قسوة الأيام الظلماء التي قضاها خلف جدران السجون والمعتقلات، لكنّها -على أيّ حال- حالة فريدة تستحق الإعجاب. وعن هذا الوعي الرومانسي المتصالح، يقول العتوم: «... ها أنا ذا يا وطني آتيك على قدر، وأقبّل ترابك الطاهر، وأنزوي ذرّة في ثراك، وأعود إليك بكامل عنفواني، وزهو شبابي الذي قضيت شطراً منه في السجن لأجلك... وطني يا أكبر من كل الأشياء، ويا أطول من كل القامات، ويا أبقى من كل الجلادين، ويا أنصع من كل التّهم، ويا أجمل من كل النساء... ها أنذا أخرج من السجن لأعود إليك هامة لم تنكسر أمام الرياح، ولم تنحنِ أمام الأعاصير»[65].

63- مروان البرغوثي، مرجع سابق، ص532.

64- المرجع السابق.

65- العتوم، أيمن، مرجع سابق.

ويلاحظ أن المعتقلين لأسباب سياسية، المؤمنين بقضايا وطنية، المحبين للوطن وتراب الوطن هم القادرون على تجاوز محنة الاعتقال والعزل والتعذيب. ومن هذا الصنف نجد مروان البرغوثي الذي قال: «لم يزدني السجن إلا إيماناً بعدالة قضية شعبي. ولم تنل زنازين العزل الانفرادي من إرادتي وعزيمتي وقناعتي ومبادئي. ومازلت على إيماني الراسخ بكلّ ما قلته في 'المحكمة الباطلة' في تل أبيب يوم 2003/9/29م»[66].

ولأن التعذيب في الأراضي الفلسطينية المحتلة أصبح طقساً يومياً، فإنّ البرغوثي يلفت نظر الفصائل إلى أهمية تعليم أعضائها وأنصارها ومقاتليها وتوعيتهم وتثقيفهم على وسائل وأساليب التحقيق والتعذيب في زنازين الاحتلال.

ولأن البرغوثي ينتمي إلى الوعي المثقف، فإنه يعمل -بفضل خبرته الشخصية في السجون الإسرائيلية- على تحويل التعذيب إلى ثقافة ينبغي أن يتعلمها الفلسطينيون كخط دفاع أخير في حربهم ضد المحتل الإسرائيلي الغاشم.

وبالمنطق نفسه يكتب مصطفى أمين صاحب الموقف، المؤمن بقضية بعد صدور حكم بمعاقبة صلاح نصر بالأشغال الشاقة مدة عشر سنوات عن التهمة المسندة إليه وهي «الأمر بالتعذيب»، فيقول: «يارب... ما أبلغ حكمتك، وأعظم مشيئتك. أمهلت وما أهملت. أنت تعلم أنني لم أطلب منك في يوم من الأيام أن تنتقم من ظالم. كلّ ما طلبته منك أن تنصف كلّ مظلوم... أنت تعلم أنني لم أطلب شيئاً لنفسي، كل ما طلبت ألا يحدث لغيرنا ما حدث لنا»[67].

وفي ختام كتابه (**سنة ثانية سجن**) يفتح أبواب الأمل على مستقبل مشرق، معلناً عن لحظة فارقة سيتحول فيها الإنسان من ظلام القبور إلى نور الحياة. يكتب هذه الكلمات في إشارة إلى أحد الأفلام التي تم تصويرها بوساطة مصور أخبار اليوم لتجسد العذابات التي كانت داخل السجن، غير أنه دفنها في مكان مجهول في حديقة العنبر، فيقول: «في يوم من الأيام لابد أن تشرق الحرية... ولابد أن تخرج أشياء كثيرة مدفونة تحت التراب... أحد هذه الأشياء هذا الفيلم... والشيء الثاني المدفون هو الحقيقة... والشيء الثالث هو... أنا!! كلنا سنخرج من القبور! بأمر الله!»[68].

66- البرغوثي، مروان، مرجع سابق، ص253.

67- أمين، مصطفى، سنة أولى سجن، ص312.

68- أمين، مصطفى، سنة ثانية سجن، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ط2، كانون الأول/ديسمبر 1975م، ص346.

لكن أبواب الأمل التي فتحها أمين ليست يوتوبيا خالصة، لكنها دعوة مستندة إلى أرض الواقع القاسية. يعي أمين أن الطغيان هو أساس الفساد في كلّ صورة. فهو الذي يحطم القيم العالية، وينشر الجبن والكذب والنفاق والأنانية والقسوة والغدر والحقد والحسد. وهذه هي صفات الظلام ومواليد الظلام. وفي المقابل يرى أن الشورى، أو الديموقراطية، هي التي سوف تعيد إلينا بعض ما فقدناه في الظلام، مثل الشهامة والفروسية والصدق والشجاعة والجد والصراحة والقناعة. ولكن ذلك كله مشروط بتحقق شيء واحد يفصح عنه أمين في عبارة واحدة موجزة: «وسوف يحدث هذا عندما لا يبقى في مصر فراعنة يستبدون... وعندئذٍ سوف تختفي الأرانب... لأن الأرانب هي ظل الفرعون!»[69].

وإذا كانت تجارب منيف والعتوم وأمين قد كشفت لنا عن روح الأمل والرغبة في بدء حياة جديدة تسودها الحرية والعدل والكرامة الإنسانية، كما كشفت لنا تجربة البرغوثي عن إرادة التحدي، والرغبة في مواصلة النضال ضد المحتل مهما بلغت سطوته، ومهما بلغ أمد الاحتلال، فإنّ تجربة يوسف إدريس تقدّم لنا وجهاً آخر للوعي ما بعد الألم، وهي التجربة الذاتية الفردية، تجربة الذات المنكفئة على نفسها، التي فقدت الإيمان بكلّ شيء، ولم يبقَ داخلها سوى الشعور بالانكسار. إنّ هذه الذات لا تعجز عن مواصلة الحياة والبدء من جديد، لكنّها تواصل حياتها على نحو مختلف، يتناسب وحجم المعاناة التي كابدتها داخل السجون. إنّ أهم ما يميّز هذا الوعي المنهزم هو إدراكه أنّ شيئاً ما قد انكسر بداخله، ولا يمكن أن يعود مرة أخرى. هذا الوعي الذي خرج من تجربة التعذيب بشكل مختلف هو الذي على أساسه ينبغي أن نقيّم تجربة التعذيب، وأن نحكم على ممارسيها (أفراداً وحكومات).

وهنا يمكننا الرجوع إلى يوسف إدريس الذي يقدم لنا أبلغ تعبير عن الوعي ما بعد الألم، أو الوعي المتغير بفعل الألم، يقول: «كان الواقع يؤكد لي أن شيئاً هائلاً خطيراً قد حدث. أنظر إلى شوقي وأدقق فيه وفي شخصيته، فأحس وكأنه مجروح، لا، ليس جرحاً صغيراً في الصدر أو الرأس، وإنما جرح جرحاً شاملاً من قمة رأسه إلى أظافر أقدام شخصيته، وأن ما أمامي ليس شوقي، ولكنه الندبة الضخمة التي تخلفت عن الجرح»[70].

والحقيقة، لو نتذكر، أنّ شوقي كان سياسياً من الطراز الأول، وأن انكساره وهزيمته النفسية الفردية لا تعني انعدام وطنيته، أو وعيه السياسي والاجتماعي، لكن شوقي يمثل الوجه السلبي لتجربة القهر والتعذيب. إلا أنها تجربة تستحق التوقف والتأمل... كيف كان يعيش ويفكر شوقي بعد خروجه من المعتقل؟ يحدثنا إدريس عن بعض التغييرات التي لحقت بشخصية شوقي، فيقول: «... كان في عينيه دائماً بريق يشع ويكسب

69- أمين، مصطفى، سنة ثالثة سجن، ص208.

70- إدريس، يوسف، مرجع سابق، ص24-25.

ملامحه جاذبية خاصة، جاذبية المؤمن بحقيقة تضيء نفسه وتفضح ملامحه الضوء الداخلي وتشعه، ويتركز النور في عينيه، وينقل للعالم صورة نفسه المؤمنة. ذلك البريق كان قد اختفى، وكأنما اجتُثَّ من جذوره، ولم يبقَ لعينيه حتى اللمعة التي تميز عيني كل كائن حي»[71].

وعن صوته يقول إدريس: «ثم بدأت أعي أن صوت 'شوقي' نفسه قد تغير، فأصبح لا يتحدث إلا همساً، همس مؤدب خافت كمن يتوقع دائماً أن ترفض طلبه»[72]. وأهم تغير يمكن أن نعثر عليه لدى إدريس في شخصية شوقي نجده في هذه العبارة القصيرة: «... ويا للسخرية، لقد كنا بالأمس نعمل، وأملنا مؤكد أننا سننقذ الشعب كله. فإذا كل منا غير قادر على إنقاذ نفسه»[73].

إنه انكسار الإرادة وهزيمة النفس واغتيال الروح، لقد حاول الراوي طويلاً أن يعيد شوقي الذي كان يعرفه، لكن كل محاولاته باءت بالفشل.

ثمة شيء ذهب إلى غير رجعة. هناك استحالة عادة الأوضاع إلى ما كانت عليه. إنّ شوقي لم يعد شوقي لأنّه فقد عقله أو قلبه، ولا لأنّه عانى كثيراً وتعذب وتألم، إن شوقي الحقيقي صاحب الوعي السياسي والاجتماعي المثقف، فقد هذا الوعي، وكل وعي، لأنّه في حقيقة الأمر فقد إنسانيته. وهذه هي الحقيقة التي كانت غائبة عن الراوي في (**العسكري الأسود**)، وعثر عليها في السطور الأخيرة من القصة: «... إن ما حدث له من تغيير والكائن الجديد الغريب الذي أصبحه، طريق لا يمكن الرجوع منه، لا يمكن أن يعود الجلد الطبيعي مكان الندبات التي يحفل بها ظهره. أجل، أدركت ما فاتني إدراكه طوال سنين، أدركت أن شوقي وقد فقد أمنه البشري مرة لن يعود أبداً مثلنا بشراً مرة أخرى»[74].

وفي النهاية، يمكننا أن نقول إن التعذيب ذهنية مثل ذهنيات كثيرة مهيمنة تتحكم فينا معشر البشر، وإن الإنسان بطبعه يميل إلى السيطرة وإخضاع الآخر لإرادته، وإن هذا النزوع غير قاصر على مرحلة تاريخية معينة أو جماعة إنسانية محددة، وإنما هو ظاهرة إنسانية مركبة، مازالت تمارس تأثيرها حتى الآن على الرغم من التقدم وعلى الرغم من المدنية وحقوق الإنسان.

إن دورنا هو العمل على كشف وفضح هذه الذهنيات الإقصائية ومحاصرتها حتى يمكن الحد من انتشارها قدر الإمكان. إن ذهنيتي التحريم والتكفير ليستا هما فقط المتحكمتين في العقلية العربية، وإنما

71- المرجع نفسه، ص20.
72- المرجع نفسه، ص21.
73- المرجع نفسه، ص27.
74- المرجع نفسه، ص90.

هناك ذهنيات أخرى كثيرة تحتاج إلى مزيد من إلقاء الضوء مثل ذهنية التغييب التي يمارسها الإعلام وذهنية التجريم التي يمارسها المثقفون، العلمانيون خاصةً، في مقابل ذهنيتي التحريم والتكفير التي يمارسها الإسلاميون، وهو مشروع نأمل أن نستكمله في القريب العاجل بإذن الله.

فالنزعة الإقصائية وعدم القدرة على تقبل الآخر سمة أساسية تميز كل الأطياف الاجتماعية والسياسية. ولقد آثرنا تناول ذهنية التعذيب لأنها لا تتوقف عند إقصاء الرأي أو المعتقد، لكنها تمتد إلى ذات الشخص، بدناً وروحاً، فتعبث بإنسانيته، وتهدر كرامته، حتى لا يعود كما هو، وإنما يتحول إلى كيان آخر مثل الزومبي، مسخ شبحي مخيف يحيا على الحافة بين الموت والحياة. لكل هذه الأسباب ينبغي أن نقف جميعاً يداً واحدة في وجه وصمة العار هذه التي تشوه وجه الإنسانية، ويطلق عليها اسم «التعذيب».

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019